

الأيام المصيبة



قصة

بقلم

سائر جابر

١٩٦١

PJ
7840
.A2887
A9
1961
c.1

BOBST LIBRARY



3 1142 01517 3100

**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

Faint, illegible text at the top of the page, possibly a header or title.

لا اله الا الله

محمد بن عبد الله

صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

Faint, illegible text in the lower middle section of the page.

THE UNIVERSITY OF CHICAGO
LIBRARY

Ernest Holmes
Sobst Library

New York
University

Jābin, Shākir

al-Ayyām al-mudī'ah.

الايام المضيئة

مع تحيات

اتحاد الأدباء العراقيين

قصة

بقلم

شاكر جابر

مطبعة الجمهورية * بغداد

الغلاف - تصميم وطبع المؤسسة العراقية للدعاية والطباعة

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

Near East

~~PJ~~

~~7840~~

~~AB~~

~~A9~~

~~c.1~~

PJ

7840

•A2887

A9

1961

c.1

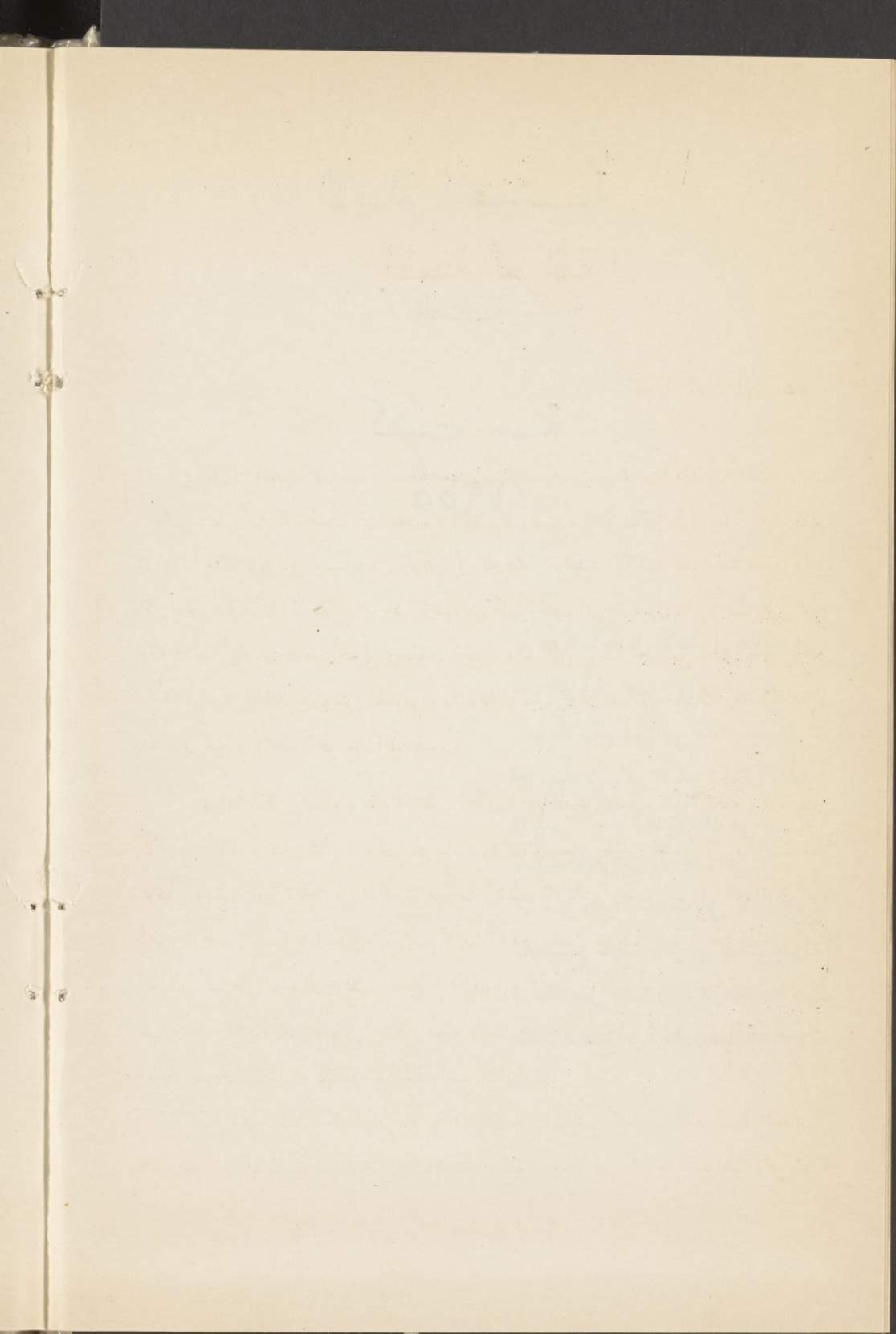
الأيام المضيئة

قصة

كتبت سنة

١٩٥٥

« أن أجمل الايام في حياتنا هي
تلك التي تبقى تضيء في جوانب نفوسنا
رغم ظلام الموم الذي طالما يخيم عليها
فلا نعود نرى غير اشباح الخوف والقلق
والياس . ايامنا المضيئة تلك هي خير
ما لدينا ولعل من الواجب على الانسان
ان يعمل قدر استطاعته على ان لا يدع
المصاييح خاوية فدل يوم يمضى يترك
شاماعاً يظل يخترق الزمن ويتسلط على
طاقاتنا فتفتح عن رغبة وحب للحياة »



في القصة العراقية

بقلم الدكتور داود سلوم

نشأت القصة العراقية الحديثة بمفهومها الحديث متأخرة جداً فقد بدأ احمد السيد - وليس بكثير من النجاح - ينشر قصصه القصيرة وقصصه المتوسطة الطول بعد ١٩٢٠ فنشر (جلال خالد) و (في ساع من الزمن) وغيرهما. وتعدد الكتاب بعد ذلك فجاوزوا في الاربعين سنة الاخيرة حوالي واحداً وعشرين كاتباً منهم انور شاؤول و ابراهيم حقي محمد وذو النون ايوب وجعفر الخليلي ويعقوب بلبول والدكتور صفاء خلوصي وعبد الحق فاضل و خليل رشيد وشالوم درويش والمحامي وعبد الملك نوري وشاكر خصبك وعبدالله نيازي وادمون صبري وعدد آخر من القصصيين .

وكما تكاثرت عددهم فقد اختلف اتاجهم في العمق والجودة والاتجاه وكان بعض الاتاج ما التزم فيه كتابه اسلوباً عربياً أصيلاً ومنهم من جدد وأقتبس في حوارهِ اسلوباً عاماً . ومنهم من أخذ من الأدب مدرسة للتعليم السياسي ومنبراً للتوجه العقائدي اما آخرون فقد اكتفوا بان يكون الاديب كالفنان الذي يصور ما يقع بصره عليه فبعض أدباء العراق كما قال ستندال مؤلف رواية (الاسود والاحمر) المرأة التي يحملها انسان على ظهره تصوراً ما ينعكس عليهما من مناظر سواء كانت حسنة او قبيحة وكان في العراق للمدرستين انصار يعرفهم من قراء القصة العراقية وتتبع كتابها .

ولم يكن نصيب (الرواية) في العراق من النجاح كنصيب القصة القصيرة . فالرواية العراقية لم تكتب بعد . وان النماذج التي بأيدينا هي كل ما طبع منها وهي ثلاثة

او اربعة منها (الدكتور ابراهيم والارض واليد والماء) للاستاذ ذو النون أيوب (في قرى الجن والضايع) لجعفر الخليلي وان هذه الروايات الاربع يموزها العمق والسعة أقصد بهذا تعدد الابطال والوجوه والتعبير عن وجهات نظر البطل المختلفة وتعريفنا عليه في الخارج والداخل في مظاهره الخارجية وفي شخصيته الداخلية . ما يبدو عليه امام الناس وما عليه مع نفسه ! ماذا يقول وماذا يفكر . كل هذه العوامل مرتبطة ومتكافئة ومتعاونة تخلق رواية تقرأ ويمكن لك ان تناقش ابطالها اما ان يكون الابطال اشبه بابطال القصص الشعبي لا يشيرون فيك اهتماماً كثيراً أ كثر من اهتمام عابر فهؤلاء ولا شك ابطال ميتون ينساهم القاريء سريعاً .

واعطاني صديقي شاعر جابر اثره الأول (الأيام المضيئة) كي أقرأه وقرأت الاثر وأعجبت به وطلبت منه ان يقدمه للطبع . وكان شاعر كثير التردد لأنه متواضع خجول يرى ان في مجهوده شيئاً لم يكتمل بعد وانا أجد فيه شيئاً ناضجاً والحجت عليه واجابني اخيراً لهذا الطلب فالحمد لله على ذلك .

فالقاريء العراقي سيتمكن ان يمسك هذا الاثر بيده ويقول بعيد ان يقرأها ان هذا الاثر عراقي حقاً . انها لاشك رواية ناجحة .

سوف تجد في هذه الرواية ابطالاً مختلفين سوف لن يخبرك المؤلف عنهم شيئاً انما سوف يتركهم لك يتكلمون فيما بينهم فسوف تحب وتكره آخرين سيكون حبك وكرهك ناتجاً عما يقولونه او يعملونه وناتجاً عما يدور في اذهانهم ونفوسهم وعن صدقهم ونفاقهم ليس هذا فقط ففي الرواية وصف للحياة كما هي . يصف لك المؤلف حياة الطلاب في كلية معينة ويصف لك حياة عائلة في البيت وعلاقة أب قاس بأبن ذكي مرهف الحس ويصف لك كذلك مشهداً ما اظنه أثار اهتماماً عند أي كاتب من كتاب القصة

العراقية . يصف لك المؤلف غرق منطقة من مناطق بغداد منذ سنوات وصفاً حياً دقيقاً
يشير الإعجاب .

اما نهاية القصة فهي من الطرافة بمكان فهو لم يختم القصة بالحوادث التقليدية بأن يتزوج
البطل البطلة ثم يعيشا بسعادة او كما يقول الانكليزيين And they lived happily ever after بل
يتترك معلقاً فهو يقودنا الى لقاء بطلي الرواية الاصليين لقاء يدور فيه حديث قصير ثم
يختفيان كما يختفي قطارهما وتنتهي القصة . ماذا حدث لهما ؟ هل التقيا ؟ هل تزوجا ؟
فالكاتب تركك تحددس الى الابد مثلي . واني لافكر كلما تذكرت ذلك الحديث اللذيذ
الذي دار بينهما افكر بالذي حدث ! وهذا سر من اسرار الفن القصصي .

اما اسلوب الكاتب وطريقته في كتابة الرواية فقد اتبع طريقتين قديمة وحديثة .
الطريقة الاولى هي طريقة القرن التاسع عشر التي اتجهت الى الوصف الخارجي للبطل .
كوصف مظهره وشكله ووصف محله او غرفته والطريقة الثانية هي طريقة القرن العشرين .
طريقة فرجينيا وولف وجيمس جويس اعني بذلك طريقة الاستبطان الذاتي الذي يقوم به
بطل الرواية نفسه . فالبطل يتحدث عن نفسه يتحدث عن خواطره يقول ما يفكر به .
ويبدو ان المؤلف قد استعان على اتخاذ هذه الطريقة بالكتاب المصريين المحدثين .

اما الحوار الذي وقع في الرواية فهو حوار البيئة دون تغيير فاذا تكلم الأب في
البيت فهناك عامية صريحة .

واذا تكلم البطل الى رفقاته في المجتمع فهو حديث منقح بين العامية والفصحى .
فالكاتب امين في هذه الناحية أشد الامانة وهذه الطريقة جديدة مستحدثة أيضاً اسماها
الغريون Speaking of Character in Character

اما النزعة السياسية التي تسود القصة فأني لا أريد ان اناقش الكاتب فيها فالكاتب
قد رصف فترة معينة كانت لها ظروفها وملابساتها. أرجو مخلصاً للكاتب التوفيق وللرواية
النجاح .

داود سلوم

حين انتهت دراستي الثانوية بتفوق لم أكن أعرف للحياة معنى سوى النجاح الذي
فرت به وكل اللذائذ التي اخترتها نفسي في عهد الطفولة والمراهقة لم تساو لذة ذلك اليوم
الذي كنت لفرط سعادتي فيه أحس كأنني أطوف باجنحة ملاك في جنة زاهية بالاحلام .
كنت أتطلع الى الحياة بشوق وأنشوف الى المستقبل بمنظار الأمل فاذا هو مضيء كالفجر ،
زاه كالربيع ، هاديء كالأمواج في ليالي الصيف المقمرة . اما همومي فكانت تتضائل امام
قوة اوهامي وظنوني الحلوة . ويوم تسلمت الشهادة كانت كل تلك الهموم الصغيرة تبدو
لي وكأنها محصورة في منشور زجاجي وما ان رحت أسلط عليها أشعة أحلامي السحرية
حتى بدا لي كل ما أتمناه قريباً ولطيفاً . كانت رغباتي تتوالد بسرعة انشطارية ، رغباتي
المخبولة التي كانت تدفعني لان أريد كل شيء وبسرعة ومن غير اكتراث او احتمال للفشل .
أجل الفشل ! هذا الذي تتحطم على صخوره زوارق الاحلام فتتقاذفها امواج الدموع
واعاصير الحشرات . ان أحداً لا يستطيع أن يكتب عن الفشل كاولئك الذين في وجودهم
جرح لا ضماد له . وأنا لا اكتب لاني انسان فاشل ٠٠٠ ابدأ ٠٠٠ رغم اني فقدت
الزورق وما فيه والقيت نفسي على صخور الشاطيء الموحش . لكن أتكون للحياة قيمة من
غير ألم ؟ تلك الحرارة التي ما تنفك تدفع الانسان الى الامام هرباً منها ٠٠٠ الألم ٠٠٠٠
ان الاخطاء التي يرتكبها الانسان في مسيرته الكبرى قد يكون ثمنها حياته نفسها وقد يكون
لا . قد يكون الثمن ذلك السعير الدائم الذي يختفي وراء رماد الخيبة والندم .
كنت أعلم أن أبي سيعترض رغبتني في اكمالي الدراسة ببغداد وكنت وإياه في صراع

مستمر . لقد تزوج امرأتين وعشنا انا وأخي من زوجته الأخرى في حيرة وخوف وقلق
ازاء تفكيره الذي سممته شيخوخة اخذت تعفن عقله ومشاكل كثيراً ما يكون هو سببها في
البيت . كان دخله - وهو معمار - يوفر لنا عيشاً متوسطاً ولكنه يخاف من المستقبل ولا
يتصور فيه سوى الجوع والموت وحين فاتحته بمسألة اكمال الدراسة شرع يسب ويلعن .
ويخلع على نفسه (أجمل الصفات) لانه تزوج اثنتين ولأن الله لم يقصف عمري أو عمر
أخي لانا نتجنب له المتاعب . كان يبدو وكأنه يرغب أن يموت كل من في البيت ، ورغم
ذلك فقد ظللت أياماً أرجوه وأتوسل اليه وكذلك امي وام أخي ايضاً ولكن شيطان العناد
كان رابضاً على تفكيره . لكنني أنا ايضاً لزمت العناد . اية قوة كانت في ؟ انني لأعجب
أحياناً كيف استطعت إقناعه ولعل أساليبي التي حيرت حتى الشيطان جعلته يهدأ قليلاً في
مساء يوم ويسألني بجفاف :-

- زين وبأي كلية ؟

كنت أعلم أنه سيسخر من جوابي ولكنني استجمعت شجاعتي وأجبتة :

- كلية الصيدلة

واذا به يضحك ويصفق براحتيه ثم يكلم نفسه متعجباً « صيدي ؟ ٠٠٠ هه ابني

صيدي ٠٠٠ واي واي !!

ثم عاد وجهه فاكنهز وغمرته تقطية بغبضة والنفت نحوي حانقاً وصرخ بي :

- أبوك ؟ عمك ؟ جدك ؟ فهمني بس ٠٠٠ أي واحد منهم صار صيدي ؟ ثم

نادى أمي بتهكم .

- تعالي يا خاتون ٠٠٠ تعالي شوفي المدلل ٠٠٠ واي واي ٠٠٠ يريد يصير صيدي

تف ٠٠ كلب ابن الكلب .

ولكن أمي لم تجبه اذ لم تكن في البيت ساعتئذ ولكن زوجته الأخرى أجابته بقوة .

- يعني شتريده يشتغل ؟ بالعمالة يشيل الطين على رأسه ؟ والله خوش ٠٠ وعند

ذاك لم يحتمل فقد نفذ صبره وصرخ بها :

- اسكتي انعل ابوكم و ابو الي خلفكم بلاء كلكم بلاء الله سلطكم على

راسي وما يخلصني منكم غير الموت .

وكان كلما استبد به الغضب يتكلم وكأنه شخص آخر يكفر بالله والانباء ويسب الناس ونفسه ويتمنى لو يموت او يموت من يلتقي به في تلك الساعة . وأحياناً كانت يدها ورجلاه تعينانه حين يعجز عن التعبير فيكسر أواني الطعام او يمزق الملابس او يضرب أمي او زوجته الأخرى او يطم رأسه بعنف وفي اليوم التالي يلزم الفراش ويشكو الصداع . وبعد أن كبرت قليلاً ورأى أنني أصلح للضعف والركل جرب ذلك معي مرة ومرتين ؛ وفي ذلك اليوم أيضاً ولكنه كان قاسياً ولا أقول متوحشاً حين ترك الدماء تسيل من انفي بعد ان ضرب زوجته على وجهها فتورم بعد قليل . كانت أمي في الخارج وحين عادت ورات كل ذلك لم تتكلم . كانت هادئة كعادتها دائماً ولكنه كان يضيق بهدوتها . كان يرعد ويزبد حين جاءت وأخذت تمسح الدم من وجهي صامته . فلم يجد بداً من أن يترك البيت وفي الصباح سمعته يقول لها :

- خلي يروح لبغداد خلي يروح الى جهنم وبئس المصير غسلت ايدي منه ، خلي

يروح وين ما يروح .

كنت أعلم ان عمي يسكن في بغداد ويشغل هناك بيع الخنطة والشعير في دكان صغير وكدت أظير فرحاً حين سمعت أبي يقول ذلك . فقد كانت موافقته تلك نعمة سماوية . هذا مع أنني لم أفكر لا باجور الكلية ولا بشمن الكتب ولا أي شيء آخر ، كنت أريد ان أدرس وأنجح وابتعد عن أبي أيضاً ، أبي الذي لم يغير دعاءه في الصلاة مذ سمعته يصلي «ربي إني مسني الضر وانت أرحم الراحمين» . أبي الذي لم يقل لي كلمة وداع فيما كنت اغادر البيت قاصداً بغداد بل كان شاربه الابيض المبروم يرتجف .

وركبت القطار الصاعد من الديوانية الى بغداد بعد ان ودعتهم جميعاً وشيعتني أمي

بأدعية وابتهالات كثيرة ، اما زوجة أبي فقد تهدج صوتها وسمعتها تخاطب أخي «روح
وصل أخوك للمحطة » لقد كانت نبيلة دائماً معي ، وغمرتني نشوة النصر بعد ان تحرك
القطار ودوت صفارته في الفضاء المظلم واخذت الصور الكثيرة تتوارد على خاطري متلاحقة
متابعة فيما القطار يسير .

اذن سوف ادخل كلية الصيدلة واسكن في بيت عمي . وأعيش في بغداد التي طالما
كان يحدثني زكي صديقي عنها وكأنها اسطورة . لقد نجحت في الذهاب كما توقع هو ،
لقد قال لي مرة :

- الحياة مقدسة يا محمود ويجب ان لا يعيش الانسان كالحشرة او الحيوان المفترس
وحين شكوت له ممانعة ابي اجابني :

- ابوك ؟ ابوك مسكين كأبي وكأكثر الآباء . اسمع اذا وافق على ذهابك فأنا
مستعد لمساعدتك رغم اني كما تعلم .

- ولكن عمي هناك وهو يجني تصور انه كلما زارنا ينفخني بدينارين او ثلاثة .

- عال - عال جداً اذن تستطيع الاستمرار في الكلية وستصح ايضاً . انت ذكي

ذكي جداً ويجب ان تفيد المجتمع الا ترى ؟

كان يلهب عزمي دائماً ويحثني على النجاح وكانت سداجتي احياناً تغزل لي اوهاماً

عريضة فأتساءل لوحدي « لماذا يلح علي هكذا .. عجب » .

لقد حضر زكي لتوديعي في المحطة وودعني قائلاً :

- لا تنس الاتفاق ...

- أنسى ؟ هيهات يا زكي

واي اتفاق كان ؟ . كان يقول لي دائماً : لقد منعوني من الاستمرار في الدراسة

ويجب ان تستمر انت والطريق التي حيل بيني وبينها تستطيع انت السير فيها الى النهاية ،

كان ابي يضيق به وبصداقتي معه ، لقد سألتني مرة :

- ليش ما تصلي يا ملعون الوالدين .

ولم اجبه لانني تركت الصلاة منذ زمن بعيد ولا ادري لماذا ، لقد كنت في مراهقتي متديناً الى حد عجيب كنت أصلي وأقرأ القرآن حتى منتصف الليل ولكن ذلك لم يعجب ابي فصرخ بي مرة وكنت أقرأ القرآن :

- يعني تريد تصير نبي ؟ ليش ما تدرس ؟ صلاة وقرآن صلاة وقرآن كل يوم وكل ليلة : عايف الدروس عايف كل شيء ملعون الاهل تريد تصير نبي ؟ فهمني ! ولا اذكر لماذا تركت الصلاة بالضبط ولكنه يوم سألني ليش متصلي : عاد فتابع :

— ادري أدري ما دام صديقك زكي
وأجته بهدوء :

- لكن زكي ما طلب مني ترك الصلاة

وبصق علي وهو يدمدم .

- غسلت ايدي منك أنت مفيد تلف تلف زكي بن حسون
صديقك وأترجى منك خير ؟ لا والله

وتوقف التطار في محطة الحلة وكانت أشعة الصباح ونسماته العذبة تثير في الشوق الى بغداد لحظة إثر أخرى وصعد شابان في مثل سني واتخذنا مقعداً قريباً مني كنت اعرف احدهما معرفة بعيدة اذ كان معي في المتوسطة ، وانتقل مع أهله خلال السنة الدراسية ولم أره بعد ذلك الا تلك الساعة وتعارفنا وفهمت منه أنه ينوي دخول الكلية العسكرية وكان يتكلم بحماس وتذكرت ابن خالتي الضابط الذي زارنا يوماً وحاول اغراء أبي علي ادخالي في الجيش قائلاً :

- عمي أبو محمود..... اذا نجح محمود خلي يدخل الكلية العسكرية ، اولاً المصروفات
على الجيش ثانياً مستقبه ممتاز . لكن أمي عاجلته :

- لا عيني لا كل يوم بمكان ، لا عيني أريد عيوني تشوفه

وأجابها معتدراً :

والله يا خاله أني أشوفه يصلح ؛ ثم ضحك وتابع ؛ وهو حلو وجسمه ممتاز بطل
ما شاء الله بطل شوفي

لكن أمي سدت أمامه السبيل قائلة :

- اسم الله عليه عسكر ؟ لا وروح أبويه لا

وحينذاك أجابها أبي وهو يصر بأسنانه :-

- تريده يصير أفندي ابن البنا صيدي تف

* * *

ومن محطة بغداد إتخذت طريقي الى بيت عمي في الكرادة جنوبي بغداد ذلك
البيت المطل على دجلة والذي قليلاً ما رأيته إذ جئت مرة بصحبة أبي وأخرى مع أمي في
مواسم زيارة الكاظمين وها أنا وحدي اليوم ذاهب إليه كانت الوان باهتة عن بغداد
لا تزال عالقة ذهني ولكني اليوم رأيتها وكأنني لم أرها بل حتى ولم اسمع عنها . كانت
السيارة تسير بي محترقة الشوارع المزدهمة بالسيارات وكنت متعباً وعيناي مبهوتين من هذا
(الجديد) الذي بدا لي كشريط سينمي سريع واحسست بالدوار والاعياء .

وغادرت السيارة فاذا القهوة التي كنت انبش عنها في ذهني وانا في السيارة تطالعي
وكذلك الدكان الصغير في مدخل الطريق المؤدي الى (الشط) وصاحبه الرجل القصير
الذي كنت قد اشتريت الحلوى منه مرة أو مرتين وهذه هي نفس البيوت القديمة المائلة
للانهدام على الجانبين ، وقطعت الطريق وأنا اتذكر واستعيد فرحاً مسروراً ، واهتديت
الى البيت بسهولة فقد قادني احد الأطفال ولن انسى تلك الفرحة التي شهقت بها امرأة

عمي بعد ان تعرفت علي . الفرحة التي ظلت تطالعني من وجهها الى النهاية . أما عمي فكان نبيلاً ايضاً لقد أحسست اني جئت سعادة لهما فهما محرمان من الاطفال . وظننت في الايام الاولى انه يتكلف ويتصنع الحركات والتصرفات لاجلي لكنني تبينت ان ذلك ليس صحيحاً . كانت الأبسامة لا تفارق شفثيه وصوته الهادي ينساب الى سمعي خنواً فتزداد طمأنيني . كان هادئاً وفي صلواته يردد دائماً « ربي لا تذرني فرداً وانت خير الوارثين » لقد أحببت حتى طريقتيه في اداء الصلاة رغم أنني لا أصلي ؛ ولعل الذي زادني حباً له واحتراماً هو عدم تساؤله عن تركي للصلاة رغم ايمانه وتدينه فلم اشعر انه يحقد علي لهذا السبب او يحتقريني . أما زوجته فكانت الاحظ مسحة الحزن ترتسم على جبينها كلما رأت طفلاً لكنها كانت تحرص ألا ألمح شيئاً من حزنها ؛ كانت مستسلمة للواقع المر وهي تعاني ألماً دفيناً يبدو أنه أثر في صحتها ورغم ذلك فكانت تبدو مبتهجة كلما علمت بحاجتي لشيء ما ، وكان الالم يعصرني وانا أراها تتعب نفسها كثيراً في طهي الطعام وإحضار صفيين او ثلاثة في الغداء والعشاء . كنت أقول لها ان إقامتي ستطول فلست ضيفاً ، ولكنها ظلت دائماً كذلك . كان البيت هادئاً وجميلاً ورغم انه قديم الا ان عمي علي ما يبدو كان دائماً على الاعتناء به لذا كان منظره لطيفاً وبعض القصور تمتد بجانبه وامامها السدة المحاذية للنهر . لقد خصصوا لي غرفة الاستقبال وفي عصر كل يوم كنت اقتعد كرسياً امام الباب امتع نفسي بمشاهدة الطبيعة الفاتنة والماء المنساب ررقاقاً عذباً والاطفال والشباب الذين يسبحون عصر كل يوم وزوارق الصيد التي يبدو منظر أشرعتها أخذاً قبيل الغروب حين يحتضن الأفق قرص الشمس وعلى جانب النهر الآخر حيث ازدحمت اشجار النخيل وكأنها تحيي فتنة الطبيعة وسحرها .

وبعد يومين او ثلاثة من إقامتي أخذني عمي معه لأرى بغداد فأستأجر سيارة « تاكسي » وكان يشير للسائق من هنا عمى . . . من هناك ابني . . . ويعود ليقول لي : شوف . . .

هذا المكان يسمونه الباب الشرقي وهذا باب الشيخ . . . باب المعظم . . . جانب الرصافة . . .
وهذا الجسر لا اعرف اسمه وقفز الى ذهني حافز عجيب كيف لا يكون للجسر اسم . . .
ولكنه كمن تذكر قال يسمونه الجسر العتيق بينما رأيت انا جديداً واستحييت ان أسأله
شيئاً عن التسمية وتابع هو يسمي لي الامكنة ويشير اليها . . . جانب الكرخ تمثال الملك
فيصل الذي كنت اراه على علب السكاير التي يدخنها أبي . . . وتمثال مود والجسر
ايضاً جسر مود كما أسماه لي .

ومضت أيام وقبل تقديمي الطلب الى كلية الصيدلة شاهدت السراي : بنايات
الوزارات وساعة السراي والتمثال البرنزي الصغير فوقها والذي لا يعرف الكثيرون لمن
هو وسألت عمي عنه فاجابني متعجباً :

- تمثال على الساعة في السراي ؟ . . . هاها . . . لجمن

- ومن هو يا عمي ؟

- لجمن - انت ما سامع عنه ؛ حقا لجمن قائد انكليزي . . . ولا ادري ان كان
مصيباً أم لا فقد سمعت مرة انه ليس « لجمن » ولا انسى ذلك الحنان الذي كان يسبغه
علي عمي . هذا الرجل الذي كنت اسأل نفسي كيف يكون أخاً لابي ؟ وقدمت الاوراق
الى الكلية ولكن عمي كان يلح علي ان يكلم احد الوزراء الذين له بهم معرفة بشان قبولي
وكلما اعترضت عليه قائلاً :

- لكن يا عمي درجاتي ممتازة ومعدلي ٨٧ وساقبل حتماً .

بجيبني :

- لا يا بني لا ، هنا في بغداد كل شيء بالواسطات . . . انت ما تدري ، انت حقا .
كنت اسير في شارع الرشيد عند عودتي من الكلية وفي كل يوم ارى شيئاً جديداً في
هذه المدينة الكبيرة والصخب والضجيج كانا يهزان نفسي فاعود للبيت وأنا بحاجة لاعصاب

غير اعصابي ورأس غير راسي . وليست السيارات الكثيرة بالوانها المتعددة واشكالها المختلفة فقط انما الاشياء الاخرى التي كانت نظراتي البلهاء لا تنفك تتفحصها . حانات الخمور واللوحات المعلقة فوق ابوابها والمخازن التي تغص بالبضائع مما لم اشاهده في الديوانية ودور السينما لاسيما في الباب الشرقي حيث كان العجب يذهلني وأنا ارى حشود الناس تتدافع متداخلة ببعضها بشكل فضيع وهم يروحون ويجيئون وكأنهم على غير هدى كما كان يبدو لي ، ثم النساء ٠٠٠ النساء اللواتي كن يثرن في احاسيس أخذت تضيق علي وتحاول فك الوثاق الذي شدت به عواطفني ، كنت أرى الصدور العارية والنهود النافرة التي تجذبني بعنف وجنون وتلك الغلالات الشفافة التي تبدو قاسية عليها . كان العرق يتصبب من جبينني وأنا أحس وجودي في بغداد لا يعني أن انجح في السكينة فحسب بل ان هذه المتناقضات الكثيرة التي تهت في خضمها هي ايضاً يجب علي الاهتداء إلى فهمها وإلى وسيلة ما للخلاص من هذه الهزات المتوالية التي تتركي ارتعش كلما تولاني القلق والاضطراب والضيق من هذه الحياة المعقدة . ولم يكن احد يعلم بهذا الصراع الخفي الذي يضطرب به كياني وكانت حاجتي الى صديق أبوح له واستعين به تتزايد يوماً فيوماً . صديق مثل زكي لكي اكشف له النقاب عما يعتمل في راسي من افكار غريبة وعجبية ايضاً ،

ومر اسبوع او اثنان قبزان اكتب لزكي رسالتي الرابعة ولكنها كانت الاولى بالنسبة لحياتي الجديدة وسطرت له كل ما اردت ووصفت له كل ما رأيت ولكنه كان ذكياً الى حد عجيب فقد تغلغل الى روحي من خلال رسالتي وأجابني :

ألى هذا الحد تصدعت ؟ على ماذا اتفقنا ؟ ستعتاد كل شيء بعد أيام والمهم الا تفكر بالهرب ، فكر في أنك يجب ان تتجمل وتتفوق ايضاً وتذكر دائماً ان الفشل ليس حليف الخوف فحسب بل انه نواة الشقاء ، الشقاء الذي على كل منا أن يعمل جهده استطاعته لدفعه والقضاء عليه . انا معك في المك بحاجة لصديق ولكن لماذا تتعجل هكذا ؟ صبراً ٠٠

انت في أيامك الأولى وستتعرف الى الكثيرين وربما تساني لا أدري . اكتب لي واقبل
تحياتي والسلام .

زكي

ولكنني مع ذلك لم أجد صديقاً في تلك الأيام ، وكان الطلاب في الفترات بين
المحاضرات يتحدثون ويتضحكون وربما كان هناك من هو مثلي يتزوي دائماً في مكان ما
انما لم اكن أعرف أحد ولا يعرفني أحد . ومما زاد في الضيق الذي كان يغلب عقلي هو
نوعية الدروس رغم أنني أجيد الانكليزية ولكنني استعدت شجاعتي بعد أن قرأت كلمات
زكي ووجدتني بعد أيام التهم الدروس واستعيدها في البيت .

لكن الذي كان يعذبني هو وجود الطالبات في الكلية ، كان يحقر في دماغي جداول
تساقب فيها افكار لم تكن لتخطر لي ببال قبل تلك الايام . وكنت كلما سألتني عمي عن سير
الدروس وعن مدى سعادتي أجيبه مطمئناً إياه لكن ماذا اقول له عن هذا الخجل الذي لف
خراطيمه الاخطبوطية حول كياني ؟ فأية سعادة يحسها انسان مثلي يخفي لسانه في مكان
ما من فمه في وقت ليس له إلا ان يقول شيئاً ما فيكسب صديقاً . وقيل في المأثور « قيمة
المرء ما يحسنه » فاعترف أنني لم أكن أحس بقيمة لوجودي حتى ذلك الحين ! نعم انا
الذي كنت أستحيي . . . نعم أستحيي حتى من التحدث الى زميل يجلس بجاني مع ان مرحة
كان يكسر كل قيود الخجل والحياء ولكن هكذا كنت .

٢

ان أجمل الايام في حياتنا هي تلك التي تبقى تضيء في جوانب نفوسنا رغم ظلام
الهموم الذي طالما يخيم عليها فلا نعود نرى غير اشباح الخوف والقلق واليأس . ايامنا
المضيئة تلك هي خير ما لدينا ولعل من الواجب على الانسان ان يعمل قدر استطاعته على ان
لا يدع المصايح خائبة فكل يوم يمضي يترك شعاعاً يظل يخترق الزمن ويتسلط على
طاقاتنا فتفتتح عن رغبة وحب للحياة .

وأية ايام وذكريات تلك التي تشع في أجواء روح كل طالب ؟ أيام الدراسة ، ايام
الصداقة الطيفة والوداد والمنافسة البريئة ، أيام الحياة الزاهرة التي يعطرها أريج الشباب .
وحتى الذين يظنون ان الشقاء يجري في شرايينهم فان لديهم من تلك الأيام ما يغذي حب
الحياة في أرواحهم . ولكل طالب أيامه وذكرياته التي يطل منها على وجوده وعلى ماضيه
وعلى مستقبله وعلى واقعه فيتبين المبرر الذي يعيش له .

لكن مع ذلك تبقى في حياة كل منا علامات إستفهام كثيرة تنتظر - وما أمر
الانتظار - وكل يوم يمر من عمر التجارب يضع وراءه علامة تعجب .
وأنا لا أدري اي شيطان وسوس لي وأغراني أن أنشر أشرعتي وأسلم زمامي لرغبة
كنت اجهل عواقب اندفاعها . . . انا الذي كنت لا أعرف لعواظي لونا ولا أحس لها
حرارة ولا أدفع عنها ثمناً . كيف ترنحت بينما العاصفة لم تدهمني بعد . . .

مرت الايام الاولى من حياتي في الكلية ولم يزل وجودي غافلاً وعواطفني راقدة ونظراتي مبهمه... كنت كأني انتظر نوراً يشع علي وأنا أكاد اختق في ظلام من الحيرة .

وكانت حفلة التعارف ... لقد كان ذلك اليوم من تلك الأيام المضيئة . اليوم الذي جلست الى المائدة مع بعض زملاء وانا اتفحص الشريط الأخضر المعلق على صدري لقد كانت توزعه الطالبة مديحة ، مديحة التي ما كنت أراها دائماً ولا فكرت بها أبداً والتي لا أزال حتى اليوم أراها وأفكر بها دائماً أبداً ولكن ... أواه أي يوم ذاك ..

كنا ثلاثة حول المائدة وكان صاحبي أجراً مني فقد أشركاني في الحديث معهما بنفس المرح الذي انطلقا في جوه وبعد أن انتهينا بما قدم إلينا أخذت أحوم بعيني حول الموائد أبحث عن مديحة الطالبة المرحه التي توزع الأشرطة الملونة علينا نحن الطلاب الجدد ومع أنها كانت هي أيضاً معنا في الصف الاول الا أنني لحظتها تحدث طالباً في الصف الثالث كان الطلاب ينادونه من هنا وهناك بهجت ... بهجت ... ورأيتها تكلمه وتضحك وإياه بمرح ومن غير تكلف ولا ميوعة . لم تكن وحدها في تلك الحفلة فكل طالبات الكلية كن حاضرات اما لماذا انسابت نظراتي البلهاء تبحث عنها ... لا أدري ، وأقتربت مني بعد لحظات قائلة :

- يعني تريد أكثر ؟

ونبوهي واحد من صاحبي :

- إنزع الشريط ... ما دمت انتهيت من الاكل .

كنت أفرح وأحزن وأحب وأكره وأنام وأصحو قبل ذلك اليوم لكنني كنت ساذجاً ... كانظف ... تماماً . وتصيب العرق من جيبني وانتزعت الشريط والتفت فاذا بها مضت وصدى ضحكها يدق أبواب قلبي دقائق متوالية . وبعد الأسابيع الاولى كنت قد اعتدت أساليب الاساتذة في القاء المحاضرات وكنت أقرأ يوماً ووضعت لنفسي

منهاجاً للمذاكرة لكي يسير لي إستيعاب المحاضرات بسهولة وكان لاجادتي الانكليزية فضل كبير في ذلك .

وكان من بين اساتذتنا الذين ليس لهم ذكرى حميدة في نفسي ونفس كل من كان معي استاذ الفيزياء الذي كان يلقي محاضراته بسرعة عجيبة كأنه يتلقى أجوراً عن كل كلمة يتلفظها. ولم يكن أحد منا مسبوقاً بسرعته تلك الا أنني بعد ثاني محاضرة استعددت له حتى لا أدع محاضرة يفوتني تسجيلها ، ومع اننا لم نكن مجبرين على كتابة الملاحظات الا انها ضرورية لنا وهذا هو السبب الذي كان يحدو بالطلبة الى الاعتراضات المستمرة على الاستاذ كي يخفف من سرعته قليلاً ولكنه لا يجيب بسوى النقر المستمر على المنصة ، وقد حدث مرة ان تطورت المسألة وأخذ يتأبى شعور بالخوف من أمور كنت اسمع عنها فقط .

لقد دخلنا ذات يوم الى القاعة وقرأنا على اللوحة هذه الكلمات التي لم يدر أحد من كتبها « يوافيكم الاستاذ . . . بالحقائق في محاضراته فتتطبع في مخيلتكم كأنطباع الوان الطيف الشمسي في العين عند دوران قرص نيوتن » وراح الطلاب يضحكون وضيغون اليها ويحذفون منها كلما شاءوا وحين أقبل الاستاذ ووقف امام اللوحة ضج الطلاب ضاحكين فالتفت وراءه كالمسوع وامتنع وجهه ثم مسح الكلمات وخاطبنا مغضباً :

- أنا لا أسمح بهذا والشجاع الذي كتبها يقف أمامي .

ولم يجبه أحد فصوب إلينا نظرات تهدد بالانتقام .

- حسناً لنبدأ الدرس .

لكنه ما كاد يمضي في محاضراته قليلاً بصوت متهدج حتى بدأ وكأنه نسي كل شيء وانطلق سريعاً كعادته ولكن أحد الطلاب لم يمهل فناداه وكان جالساً في الخلف :
استاذ : رجاء على كيفك .

لكن الأستاذ كان لا يزال حانقاً فأجابه :

- ومن أجبرك على كتابة شيء ؟

- ولكن تسجيل الملاحظات ضروري ونحن في بداية السنة .

واخذ الطلاب يتهايمسون وتطور الهمس الى (وشوشة) صاح الاستاذ بعدها :

- قولوا لي ماذا جرى ؟ ماذا تريدون ؟

وفي تلك اللحظة اجابته مديحة :

- استاذ لا نفهم وانت سريع هكذا .

- طيب وبعد ؟

وأجابه آخر من الصفوف الامامية :

- الملاحظات تفوتنا ونحن لم نكتب شيئاً وليست هذه المرة الاولى التي نرجوك فيها

لكن الاستاذ كان من طراز آخر ، من اولئك الذين يعجبهم العناد ولكن في غير

مناسبته واخذ ينقر المنصة امامه بعنف كي يهديء من الجو الذي بدا يتكهرب قليلاً ببعض

العبارات من هنا وهناك ثم قال بلهجة صارمة :

- الذي لا يعجبه يستطيع ترك الدرس وتذكروا أن هناك ادارة يستطيع كل واحد

منكم مراجعتها .

كانت مديحة جالسة امامي وبجانبا إحدى الطالبات وسمعتها تقول لزميلتها :

- ماذا يقصد ؟ ماذا يعني ؟ نخاف منه ...؟

- لكن مديحة لماذا انت عصبية هكذا ؟

- بهيجة انت دائماً (لا أبالي) أكثر الملاحظات فاتتني ؟

- أنا أيضاً بل لم أكتب شيئاً .

- طبعاً لانك ذكية والمحاضرة تطبيع في ذاكرتك !!

وضحكنا معاً ضحكة خفيفة وهما تستعيدان عبارة « انطباع الوان الطيف

الشمسي .. »

وفي تلك الدقيقة حدثت المفارقة اللطيفة بعد ان أقبل الفراش وهمس في اذن
الاستاذ شيئاً غادر بعدها القاعة وتبرع أحد الطلاب فأطبق الباب خلفه وانتشرت الضحكات
العالية في أرجاء القاعة والنقاش والجدل .

- لا نريده ماذا يعني لم نستفد منه ؟

- صحيح لماذا يصر ؟

- لماذا لا تقدم عريضة ؟

وسألني زميلي الذي بجاني :

- أترى كيف انه لا يكتثر « يعني الاستاذ »

قلت :

- صحيح لكن ماذا نفعل له ؟

والتفتت « مديحة » الي فجأة وكأني سألتها هي :

- ماذا نفعل؟ ليأتوا لنا بغيره ... أكتبت شيئاً أنت ؟

ومرت لحظة رهيبه لم أظن لحراجه السؤال فقد كنت أبذل جهدي كي لا يفوتني شيء .

وأجبتها متلعثماً :

- نعم كتبت ولكن ليس كل ما يجب

ونظرت الي مندهشة متعجبه ثم قالت :

- تسمح لي بدفترك أشوفه ؟

وناولتها الدفتر وشرعت تقلب صفحاته ثم سألتني :

- أكتبت كل هذا ؟ ألم يفتك شيء ؟

- لا ... تقريباً ... لكنه يسرع أكثر من اللازم .

وكأنها ارتاحت لهذه الكلمة التي اطلقتها أنا نيتي بينما فسرتها هي تفسيراً آخر
تقالت:

- صحيح من أكثر اللازم ومن دون سبب .

وأذا بزيملتها تقول لي :

- تسمح لي بالدفتري حتى استنسخ منه واعيده لك غداً .

- العفو تفضلي ٠٠٠ ابقيه عندك ؟

- اشكرك ؟

- العفو ؟

كان الطلاب في شغل شاغل وحتى صاحبي الذي أخرج بسؤاله لساني من مخبئه انشغل مع آخر ودق الجرس ولم يرجع الاستاذ وفيما نحن نغادر القاعة التفتت لمربيحة الي مبتسمة وراحت وصديقتها تمشيان في حديقة الكلية بينما وقفت منزوياً أقرب قامتها الممشوقة ووجهها المدور المضيء وشعرها الكستنائي وأستعيد كلماتها وأتساءل بغباوة :

« أية فكرة أخذت عنى أتعجبت منى هكذا لأن لم يفتنى من الدروس شيء ؟ » اننى أتذكر جيداً كيف عدت الى البيت يومذاك مبتهجاً فرحاً والوجه المدور المضيء والابتسامة اللطيفة يثيران في شعوراً غريباً لم أكن أفهم شيئاً منه لسذاجتي . كنت مبتهجاً لكن لماذا ؟ الآن زميلتها استعارت الدفتري ؟ ام لانها هي ابتمت ؟ ام لانني كلمتها ؟ ٠٠٠ وبسرعة ما توقعتها ولا كنت احسب انى جريء لهذه الدرجة ٠٠٠ أنا الذي افتقد الشجاعة حتى على التعرف بالطلاب او تجية اى طالبة التقى بها .

لكن مديحة لماذا انت عصبية هكذا ؟

لكن مديحة لماذا انت عصبية هكذا ؟

لكن مديحة لماذا انت عصبية هكذا ؟

وفي صباح اليوم التالي كنت في طريقي الى الكلية وقد زاياني الشعور بالضيق الذي

كان يتتابني فيما مضى إذ كنت أقطع الطريق بين محطة السيارات والكلية إما متصفحاً كتاباً او دفترآ . أما في هذا الصباح فقد وجدتهني اتباطاً في مشيتي وأمعن النظر في واجهة قاعة الملك فيصل كأنني أمر بها لأول مرة وكان فيها ما يستحق التأمل ؛ هذه القاعة التي حدثني زكي عنها مرة ووصفها لي بعد مشاهدته حفلة تمثيلية أقيمت على مسرحها . وكنت كلما التفت الى الجانب الآخر من الشارع صدمني سور مستشفى المجاذيب الذي يبدو بغيضاً مقبياً لانه يوحي بالألم والتعاسة التي طالما يشير اليها الطلاب في الكلية . اجسام ضخمة فارغة من العقول توحي بالاسف او نحيلة عارية في زمهرير الشتاء تهز الرائي وتتركه يتساءل «الوجود» معنى بلا عقل ؟

ووصلت الممر الى الكلية وفي نفسي متناقضان يتنازعان طمأنيتها ، الاشجار الباسقة والازهار الملوثة التي تطرز ارض الحديقة في جانب وسور المستشفى الذي يبدو - لاهماله - كبقايا آثار موغلة في القدم تسكنها حيوانات مرعبة .

ولم اتذكر كسبي المحصورة بين اصابعي الا بعد أن لم يبق بيني وبين الكلية سوى خطوات قليلة فقلبتنا متصفحاً كأنني خشيت فقدان بعضها وتذكرت ان عندنا اليوم (كيمياء تحليلية) وحقق قلبي . اتنا سنقف وجهاً لوجه . . . أنا ومديحة في المختبر ! مديحة التي لم يعن وجودها قبل اليوم شيئاً بالنسبة لي ولكن اليوم . . . ماذا دهاني ؟ وكانت صديقتها (بهيجة) التي استعارت دفترتي واقفة قرب الباب ، كانت قصيرة مكتنزة الوجه في عينيها جراءة وعلى شفيتها ابتسامة محبة بريئة وقد شجعتني ببساطتها هذه على ان أحياها وفيما أمرق الى الداخل :

- صباح الخير

- صباح النور

ولكنها ناديتني بعد ان لحظت أنني لم أتوقف .

- محمود

- نعم

- محمود هذا الدفتز وأشكرك

- العفو ... هل أفادك؟

- طبعاً ... لقد كتبت كثيراً وخطك واضح ومقروء ... أما عجيبة كيف كتبت كل هذا والاستاذ أسرع من السريع؟

وفيما هي تضحك امتدت نظراتي مع الممر الذي جئت منه وإذا بمديحة مقبلة ، كنت أريد أن أضحك ولكنني عجزت حتى عن افتعال الضحك وشعرت بجسمي يرتعش وقلبي يدق بعنف واعتذرت من بهيجة التي اعتقدت انها فهمت شيئاً ما ودلفت الى الداخل كأنني أهرب ... والانسان يهرب أحياناً من عواطفه لكنه سرعان ما يجذب اليها بقوة لا يصمد العقل أمامها أبداً .

* * *

كنا نقف حول المنضدة في غرفة المختبر في صفين متقابلين وامام كل اثنين حوض صغير فيه حنفية وبجانب كل منا مستلزمات المختبر من مواد ومحاليل و (مصباح بنزن) أيضاً . مصباح بنزن الذي ظل يرمز الى معركتي الاولى والى هزيمتي ايضاً وأسرعت الى مكاني بالسرعة التي يندفع بها الطالب الى قاعة الامتحان لكن سرعان ما يخرج منها وكأن رجليه مشدودتان الى بعضهما .

كان الاستاذ يروح ويجيء ويقف عند كل منا ملاحظاً مفسراً ، كان رجلاً محبوباً زاده شعره الابيض وقاراً وهيبه ومنظره يوحي بالهدوء لكن ... قلبي المجنون ... المدعور ... لم يكن ليأبه للاستاذ ولا للطلاب حولي ... كان الامتحان عسيراً جداً . كيف سلمت علي

...
شميكة
كنت
وكأني

أشعلت
ت نحو
عدان
بمكة

بن كثيراً
سدونه

وناد
كنت
شيئاً
أخشا
نادين

مص
الع
سقا
بص

ما
المع

- محمود هذا الدفتر وأشكاه

DEC 10 1969

N.Y.U. LIBRS. NEAR EAST NEW O.

Perma Bind

JABIR

AL-AYYAM AL-MUDI'AH

PJ
7840
.A3
.A9
c.1

فيه
مصباح
بالسرعة
مشدود

شعره الا
لم يكن ليا

صية كيف كتبت

ديحة مقبلة ،

سمي يرتعش

الى الداخل

ب اليها بقوة

صغير

• آ

ثاني

هـ

وناديتي باسمي؟ كيف عرفت اسمي؟ أنا لم أسمعها تحييني قبل اليوم... أبداً...
كنت اختلس النظر اليها والى الطالب الذي بجوارها. لم الحظ من وراء نظارته السميقة
شيئاً في عينيه ولحسن حظي لم يحضر ذلك اليوم زميلي الذي يجاورني كل مرة. كنت
أخشى ان يلحظ الاستاذ ارتباككي لكنني رأيت وجهه جامد التعابير ونظرت الى مديحة وكأني
ناديتها فرفعت رأسها فجأة عن انبوبة الاختبار التي يدها وابتسمت ثم سالتني:

- هل أرجعت ببيجة دفترك؟

وشعرت بجفاف في حلقي ويبوسة في لساني وقلت:

- نعم استنسخته بسرعة

- ولكنها ليست سريعة مثلك. اسمع محمود - تسمح لي به؟

- حاضر.

ومضت لحظات وأنا لا أكاد أفهم شيئاً من هذه الأدوات التي أمامي وأشعلت
مصباح بنزن ذي اللهب الزرقاء ومسكت انبوبة الاختبار بمقبضي لكن نظراتي انجذبت نحو
العينين الممناطيسييتين مرة أخرى واذا وجهها يضيء بابتسامة ساحرة ولم أنتبه إلا بعد ان
سقطت انبوبة الاختبار من يدي ولذعت اللهب الزرقاء أصابعي وسمعتها تهمس ضاحكة
بصوت خفيض:

- محمود احترقت؟

- لا... بسيطة... أصابعي شوية...

لا أدري ما شعور الطالب الذي كان بجوارها او الطلاب الاخرين الذين كثيراً
ما تتلصص عيونهم هنا وهناك كلما أحسوا شيئاً. لكن الاستاذ اقترب مني وسألني بهدوئه
المعتاد:

- ماذا جرى يا بني؟

- العفو استاذ - وقعت من ايدي

ولا اعلم اذا كان قد فسرا اضطرابي تفسيراً سطحياً أم لا فقد اجابني :
- لا بأس ... كن حذراً ... على كل حال ... لا بأس

قال ذلك وتركني اواجه هزيمتي أمام العينين المغناطيسيتين والابتسامة الساحرة
ولم يدر ان ألدني أحرقني لم يكن مصباح بنزن .

وجئت لها بالدفتز بعد مغادرتنا المختبر ونظرت إلى اصبعي الملفوف وهي تسوي خصلة
من شعرها الكستنائي كانت تداعب جبينها وسألتني :

- أتألمت ؟

- لا .. لا أبداً ...

- لكن كيف وقعت ؟

- لا أدري أفلتت بسرعة .

ولم أستطع أن أنام في تلك الليلة وكم أقسمت للوسادة ان لا أنظر الى مديحة مرة
أخرى بعد الحرج الذي زجني فيه قلبي المجنون ولكن الساعات كانت تمضي والوجه المدور
المضيء والابتسامة الساحرة ما ينفكان يجذباني الى غرفة المختبر ... اصابعي التي اكتوت ،
الأنبوبة التي تحطمت والهسمات المربكة التي تردد صداها في سمعي .. محمود ماذا ؟
احترقت ؟ كيف ؟ والضحكة الناعمة وسؤالها ، أنسيتمها ؟ .. ويقفز الى مخيلتي الطالب
بهجت الذي رأته يكلمها مبتسماً فرحاً ووجهه مغمور بنشوة كأنها انعكاسات لابتسامتها ..
لضحكتها .. من يكون ؟ .. ما يكون بالنسبة لها ؟ .. هل هو أخوها ؟ أم ؟ .. اوه ما
أطول الليل ؟ ..

كانت ليلة ولم تكن كغيرها من الليالي . الليلة التي لم يكن فيها للزمن حساب عندي
ولا معنى في تقويم أفكاري وأنا أتساءل : ماذا فعلت ؟ ماذا سأفعل ؟ وسمعت المؤذن .

لأول مرة من الجامع القريب كان صوته ينساب عبر هدوء الفجر صافياً عذباً ، ولم أعجب كيف مضت الساعات سريعة هكذا بل كنت استعجلها كي أمضي الى الكلية لاكون قريباً منها .

٢

كان الطلاب يتحادثون في موضوع واحد تقريباً ورأيت بعضهم يحمل بطاقات حفلة تمثيلية ويبيعونها للآخرين . وكنت واقفاً في احدى الزوايا حين اقترب مني اثنان يتراكمضان وكان الاول يضحك بينما الذي يتبعه يصيح :

- أرجوك خليل أتعبتي ...

- ماذا تريد ؟ .. أما عجيبة

- الفلوس يا أخي أو البطاقة

وتوقفا قليلاً وكان الهارب يضحك وهو يقول لصاحبه :

- شوف سلمان أما الحفلة فلازم أشوفها وأما فلوس فما عندي

- يعني ربع دينار ما عندك ؟

- واذا ما عندي ؟ عيب ؟

- أرجوك اترك الجدل تدفع بكره !!

- لا بعد بعد بعد بعد بعده

- يعني ؟

- يعني بعد اسبوع

- يا أخي موعد الحفلة بعد اسبوع

- كل يوم تنقلب مئة عمامة ٠٠ لا تستعجل ٠٠ ربما أدفع لك بكرة

- على كل حال المسألة مسألة تشجيع

كنت أنصت اليهما وعيناي متجهتان الى الحديقة والتفت حين سمعت جواب الآخر:

- بعد يوم او يومين البطاقات تخلص ومنين أحصل وحده واذا صارت المسألة جد فغداً

صباحاً بعونه . اهه اهه اهه ها رضيت ؟

- كانت مديحة متجهة نحوي وعلى بعد خطوات نادتي :

- محمود

- نعم

- اشتريت بطاقة ؟

- ما اشتريت بعد سأشتري من الأخ

وأشرت اليه بيدي ولكنها فاجأتني :

- أنا أبيع لك عندي كلفوني ببيع قسم منها .

ثم لمعت في عينيها نشوة بالفوز وتابعت :

- واحدة ؟

- لا اثنتين

وارتسمت على قسماتها فرحة خفيفة وهي تخرج البطاقات من جيب معطفها بينما

اسرعت يدي الى الدينار الذي ظل أياماً في جيبي ولا أدري ماذا اشتري به وأعطيتها

اياه وقبل ان تتركني قالت :

- أرجع لك الباقي بعد قليل

- ولم العجلة ؟

- لا . . لا . . سأعود حالاً

وفيما كنا نغادر الكلية استوقفتني

- محمود تسمح تنتظر شوية حتى أعطيك الباقي

- شكراً . .

- أنا أشكرك

- لأي شيء ؟

- لأنك اشتريت

- لكن هذا واجب

- صحيح هذا واجب فالفرقة ممتازة ومسرحياتها دائماً رائعة ؛ شاهدت تمثيلها في العام

الماضي ؟

- لا

وأقبلت زميلتها ببيجة التي كانت الظروف سخية بوجودها . ومشينا الطريق بين السكنية ومحطة السيارات نتحدث عن الاسانذة والدروس ووصلنا قريباً من نهاية الشارع حيث توجد القاعة فسألتها :

- ستقام الحفلة هنا ؟ انها تبدو قاعة فخمة

- ألم ترها قبلاً ؟

- أنا لم أر بغداد قبل هذه الايام فأنا من الديوانية .

- والبطافة الثانية لمن إذن ؟

- عندي صديق سأدعوه

كان زحام الناس شديداً وهم يتحرقون انتظاراً للسيارات وودعتنا صديقتها ببيجة ومضت على الرصيف المحاذي للسجن الكبير المواجه للمكتبة العامة ثم التفتت مديحة الي ضجرة .

- كل يوم نفس العذاب زحام وتدافع هذا وضع ؟
- صحيح تصوري امس ما وصلت بيت عمي الا بعد ساعة أو أكثر
- انا مثلك ولست وحدك انا وانت وأكثر الناس كل يوم كل يوم
- بيتكم بعيد ؟ في الكراة
- لا في السعدون

وكنت لا أعرف عن هذا الاسم سوى التمثال المنصوب في الباب الشرقي من بغداد ولم أكن أعلم ان هناك حديقة كبيرة لها هذا الاسم أيضاً وصعدنا إلى السيارة ولم تسعفني الظروف هذه المرة فقد تنازل لها أحد الركاب عن مقعده وكنت أقاوم امتدافعين لأبقى واقفاً قريباً منها على الاقل ؛ كانت تشاغل بتفحص كتبها تارة وأخرى تنظر عبر الزجاج إلى اشجار الكالتوس الضخمة الممتدة مع شارع السعدون ثم تلتفت وتبتسم، كنت في كل مرة اغادر السيارة في محطة الباب الشرقي لأذهب من هناك الى الكراة في السيارات الاهلية ولكن شيئاً ما ، كان يشدني الى مكاني هذه المرة وحين نهضت مديحة وغادرت السيارة وقفت على الرصيف ثم ابتسمت لي وكنت أفقد توازني فيما السيارة تتحرك وأنا أودعها .

وفي مساء ذلك اليوم تسلمت رسالة من زكي وكنت انساناً آخر ولم تحو رسالته غير السؤال عن الصحة والراحة والاستفسار عن سير الدروس ثم ملاحظة صغيرة في اسفلها « كيف تجد بغداد ؟ » وكنت قبل أن أتسلم الرسالة أحس برغبة في التحدث مع أحد ولعل احساساتي الملتهبة حين كنت أكتب له هي التي صاغت رسالتي بهذا الشكل .

اخي العزيز زكي
السلام عليك

تسلمت رسالتك عصر اليوم وأي يوم هذا ؟ لقد فرحت بها كثيراً لأنني فكرت ان أكتب اليك صباح اليوم . أنا مشتاق إليك ؛ الى رؤيتك ، الى التحدث معك ، أنتخى لو

نكون معاً الآن اذن لتعجبت مني . أكاد أظير .. أظير فرحاً أظير وأتي اليك لافضي لك بشيء مهم .. أهم من كل مهم أتدري ما هو ؟ لقد تعرفت على طالبة معي في الكلية انها تشغل فكري كله تصور اني لم أنم ليلة أمس بتاتاً كنت افكر بها فقط أتصدق؟ ماذا تقول في هذه المسألة ؟ واليوم حصلت على بطاقتين منها لحفلة تمثيلية ستقيمها فرقة ٠٠٠ على مسرح القاعة التي كنت تحدثني عنها . يجب ان تأتي . حصل على اجازة يومين قبل الجمعة . تعال ارجوك أريد ان أقول لك أشياء كثيرة عندما تأتي ٠٠٠

المخلص محمود

وقبل موعد الحفلة بيوم تسلمت جوابه وكنت قلقاً قبل أن يصلني ذلك الجواب الذي دلني على أشياء ما كنت أعرف أن لها بحياتي صلة كصلة الروح بالجسد ، صلة استحالت فيما بعد الى جزء من وجودي .

عزيزي محمود
سلاماً

وصلتني رسالتك المؤرخة ٤ منه ودهشت وتحيرت أيضاً . ماذا دهك قل لي أنت كتبت الرسالة حقاً ؟ لكن كيف .!! أنا أفرح لفرحك كما تعلم لكن انشراحك يبدو اكثر من اللازم . أتدري ماذا قلت لي؟ قلت أنك تحب انما بأسلوب آخر ولكن تذكر يا محمود ان الطيران من غير تبصر لا يؤدي الا الى السقوط ودفعت الثمن تذكر المثل: «ما طار طير وارفع» ثم أبهذه السرعة أحبيتها .. الله الله . . . لانها كلمتك او نظرت اليك او ابتسمت لك لا

أدري... ومن أدراك انها لا تحب رجلاً غيرك ؟ ارجو الا تطير بهذه السرعة .
وسوف آتي الى بغداد . تحياتي واشواقي .

زكي

المخلص

وطويت الرسالة وأنا شبه نادم لاني أخبرته . لم أتوقع انه سيسخر مني بهذا الشكل ، لم أقل له انني احبها انما هو الذي استتج كعادته دائماً وحاولت ان أتذكر رسالتي اليه وتأكدت انني لم أقل له اكثر من (تعرفت) ولكنه قال لي « أهكذا بهذه السرعة ؟ » ومع ذلك فاندفعت بنفس شعوري الاول وانتظرت في المحطة وأبيت عليه الا ان يأتي معي الى بيت عمي وحاول ان يصر على الذهاب الى الفندق ولكن الحاحي اجبره على الرضوخ . ولم أخبر عمي أكثر من أنه كان صديقي في الديوانية ولا يزال فرح به عمي الذي كان يبالي أحياناً في تدليلي حتى ان زكي المح الى ذلك عندما تمدد كل منا على سريره وقال لي:

- أنت في جنة الآن ماذا تريد بعد؟

- جنة ؟ ها ها . . . تقصد عمي انه يحبني كثيراً وهو ليس له اولاد ايضاً .

- لست أقصد عمك وبيته فقط بل المحورية التي سحرتك .

أرجوك زكي انت ألمتني في رسالتك كثيراً وعدت الآن تهاجمني ؟

- ماذا ؟ ألمتك ؟ تألمت لانني قلت لك تمهل ولا تندفع ؟

- ولكنني لم أقل لك انني احبها

- أتعتقد انني (غشيم) . . . انت تعرفني وانا اعرفك

- أنت تفسر الاشياء بغير الحقيقة اذكر مسألة الطيران

- ها ها . . . صحيح . صحيح . والان ايضاً أقول لك ربما لا تكون لها رغبة في الطيران

فماذا تكون النتيجة ؟

- زكي اسمع انت تقول اشياء ما فكرت بها ابداً .

- اقسام

- ولماذا اقسام الا تصدق ؟

- أنا أقسم اذن ، أقسم انه سيأتي يوم وتقول إنك تقدسها وتقسم بها . لكن قل لي هل هي

جميلة ام مثقفة ؟

- ماذا تقول

- اقول لك هل هي رشيقه خفيفة الدم فاتنة ام ان جمالها في عقلها .

- الممسألة بسيطة فلماذا عقدتها الى هذا الحد ؟

- محمود انا صديقك فلماذا تضيق بصراحتي ٠٠٠ كنا نتكلم بصراحة قبل اليوم ، هل

تغيرت ؟

- انت عقدت المسألة

- طيب ٠٠٠ دعها الى غد ربما تفاهم

ولزم كل منا الصمت بضع دقائق لكن كلماته التي زلزلتني كانت تقض مضجعي

وفيما أخذ الناس يغالبه عاودني كل النشاط فسألته :

- زكي ماذا تقصد بجميلة أم مثقفة ؟

- ها . . . تذكرت من جديد ؟

- لا . . . لا تمزح أرجوك

- أقصد ان بعض الطالبات أو لنقل النساء دمي جميلة لطيفة خالية من معنى الحياة وهو

الثقافة وبعضهن بالعكس .

- واذا كانت الفتاة التي اخبرتك عنها مثقفة

- اذن ستعب كثيراً قبل ان تفهم شعورها .

- أتعب؟ لكنها بسيطة وليست متكبرة متعجرفة
- صحيح أسمعت ان المثقف يتكبر او يتعجرف ... أبدأ
وتأوه صاحبي وهو يتمتم « رحم الله شوقي ... »
وسألته حانقاً :
- وما لنا ولشوقي ؟
- لا شيء لكنه قال نظرة فابسامة و
- عدت تسخر مني ثانية.

وفي طريقنا الى الحفلة وكنا نسير على رصيف شارع الرشيد عاد زكي فسألني عما
رأيت وأنا أعدد له وأمتدح ما أعجبني وما لم يعجبني وحدثته عن الكلية والاساتذة واستاذ
الفيزياء بوجه خاص وعن الدروس وعن مستشفى المجانين وما يجري فيه مما أشاهده كغيري
من الطلاب كل يوم وكان لا يتفك يستزيدني لكنني كنت اصتبق كلما التقى به صديق وراح
واياه في انسجام بعض الوقت في السؤال عن الحال والكيف وتعجبت فسألته : متى تعرفت
بكل هؤلاء؟! كل خطوتين ثلاث صديق!! وأجابني ضاحكاً :

- اني على الاقل اكبر منك بأربع سنين ، ثم الا تذكر اني اخبرتك عن الكلية التي
حرمت منها والوظيفة التي اضطررت على الاحتفاظ بها اضطراراً حتى نقلوني الى الديوانية
انت تعرف هذا فعلام تسأل؟

واتخذنا مكاناً مناسباً في القاعة التي لم اكن اتصورها بذلك الشكل والتنظيم والضيق
ايضاً ومضت دقائق واذا بالقاعة تكاد تغص بالداخلين مع انه كان لا يزال بعد أكثر من

نصف ساعة لبدء التمثيل . وأخذ زكي يحدثني عن الفرقة وما شاهد لها من تمثيلات فيما مضى وأدركت انه معجب الى حد غريب بهذه الفرقة واسترسل وهو يحدثني عن الادب المسرحي والمسرحيات والمسرح العراقي لكنني كنت مشغولاً عنه ، كنت أحوم بعيني في الجوانب واتطلع الى الابواب حيث كانت تقف عشرات الفتيات ولم اتبه الى ان زكي لحظني وكدت اقفز من مكاني فرحاً حين رأيتهما تدخل ، كانت جميلة واجمل مما كان بصورها لي خيالي المسكين وفجأة اقبل بهجت هو نفسه مرة أخرى وأحسست بالخيبة تغطي برمادها عواظي التي احترقت لحظتها .

كنا جالسين في صف من المقاعد ، يتقدمه ممر . وما أن إقتربت مديحة منا ورات زكي حتى اذا بها تحسنا باندهاش .

- هالو زكي أنت هنا ؟ ٠٠؟ مساء الخير
- وأجبتنا معاً :
- مساء النور
- وتابع هو :
- جاء بي الأخ (وأشار إلي بيده) ولكنها فاجأته :
- من ؟ محمود ؟ ٠٠ أتما صديقان ؟
- أتعرفينه ...
- طبعاً ؛ معنا في الكلية
- وكانت ابتسامة بلهاء تطوف على شفتي ولم أدر ماذا أقول . ثم سألتها صاحبي :
- أنت دخلت الصيدلة اذن ممتاز ممتاز أتأتيكم أخبار عن شوكت
- سيخرج قريباً لم يبق له الا مدة قليلة ، ستة أشهر .
- أنت تزورينه طبعاً ،

- في الشهر مرة ؛ هكذا يريدون .
- على كل حال أرجوك ان تسلمي لي عليه كثيراً .
- شكراً .

واستأذنت ثم ذهبت لتجلس حيث يجلس ذلك الشخص الذي كان يتجسد فيه
البغض والكراهية والحقد الذي تستفزه غيره عمياء جنت في تلك اللحظات المشؤومة بنفسه
ولا أدري الى أي حد كنت اشعر بالمقت له ؛ كنت في شبه غيبوبة من الدهول وقلبي يضرب
بعنف وسألني زكي متعجباً .

- محمود مابك

- لا شيء .

- انها فتاة ممتازة مثقفة ثقافة عالية .

وانحسر الستار وبدأ التمثيل ؛ كان التصفيق حاداً والحماس على أشده بحيث كاد
الجمهور ينفجر في مظاهرة صاخبة وكان زكي يكاد يمزق راحتيه بالتصفيق ولا ينفك
يهمس في سعي: أتلاحظ عظيم أسمع ؟ روعة ، روعة ، وكنت أصفق وأويده
لكنني عبثاً حاولت مشاركته حماسه . كانت رغبتى بترك القاعة تتزايد دقيقة بعد أخرى
فسألني زكي بعد انتهاء الفصل الاول :

- محمود ماذا جرى ألا تخبرني ؟

- لا شيء ماذا تظن ؟

- ولكنك غير مرتاح بالمسألة ألا تقول ؟

- قلت لك لا شيء يا أخي لماذا تلمح علي هكذا ؟

- طيب اظن أنني فهمت شيئاً ما وستتكم في الموضوع بعد انتهاء التمثيل .

وفي الفصل الثاني كنت اراها تصفق بحماس ولكن لم ألحظها تبدي اهتماماً ببهجت
كانت بجانبها فتانان لم أرهما قبلاً وأتذكر انها التفتت مرتين او ثلاثاً ولا أدري ان كانت
تلتفت إلي أم الى زكي لكنني شعرت بنوع من الضيق من زكي !! كنت أغار لكنني لم أعرف

بعد حقيقتي أبدأ الا أن زكي هو الذي أرانيها ونحن في طريق العودة إذ سألتني فجأة :

- محمود لم تقل لي شيئاً بعد عن الفتاة التي كتبت لي عنها .
- قبل ان أجيبك هل تخبرني كيف تعرف مديحة ؟
- إذن هي مديحة ها
- كيف تستتج ؟ لا أدري ... شيء عجيب
- انها بالتأكيد هي . لقد كنت لا تفكك تنظر اليها .
- لماذا تربط بين المسألتين . اني سألتك كيف تعرفها : ومن هو شوكت ؟
- انت تسألني دون ان تجيبني
- ولنفرض أنها هي فماذا يعني ؟
- علام انت عصبي هكذا .. انه مجرد سؤال لا أكثر .
- مجرد سؤال أم انك معجب بها .
- انت تفكر كالمراهقين .. ماذا دهاك اذن فانا اراحمك يا غريمي
- أرجوك زكي لا تسخر

وضحك وهو يربت على كفتي بحمان أخوي ولكن سخريته أضرمت في قلبي ناراً كنت

عاجزاً عن إخمادها وبعد قليل سألتني :

- لو كنت قلت لي من الاول وأرحتني وأرحت نفسك .
- عن أي شيء ؟
- لو أخبرتني باسمها على الاقل .
- هل أنت عرفت اسمها وعرفتها ورأيتها و ..
- على كيفك على كيفك أنا صديقك أم عدوك ؟
- ولكنك تسخر يا زكي
- دعنا نتكلم بجد .. أترضى ؟
- أعرف .. ستلقي علي موعظة . ولكني احبها احبها احبها .

- الا تدعني أنكلم : اقول شيئاً ؟

- ماذا تريد ان تقول ؟

وصرخ بي :

- المسألة مهمة وضروري ان تفاهم

وفجأة كنت كالطفل الوديع وراح يصب في اذني كلماته بهدوء وكأننا لم نتصايح منذ لحظات .

- أقول لك فكر بالمسألة جيداً أنت في بغداد وكل شيء جديد عليك والحب شيء سهل

من جانب واحد ومن مثلك بصورة خاصة ثم أتظن انها تحبك ؟ واذا لم تكن كذلك فماذا ستفعل ؟ تتحرر ؟ هه

- أترى كم تطورت المسألة ؟

انت في السنة الاولى واذا لم تترث فستندم

- أندم على ماذا ؟

- تندم حتى على عمرك .. أنا لا اقول لك دعها وشأنها . لا ابدأ لكن فكر جيداً قبل

ان يكون حبها عقبة ... اتعرف ماذا أعني .

- لا والله

- الحب الذي يتطور الى عبادة سرعان ما ينقلب الى كفر لأن ليس للعقل حكماً عليه .

٤

ما اسهل ما يرضى الانسان عن نفسه حين يخدعها بسرعة وبساطة وكلما صرخت

الحقيقة بصيرته اسرع الى الافيون ، الى كل فكرة تيسر له الوصول الى الرضا والطمانينة

والراحة . والذين يركضون وراء السراب لا بد لهم ان يقفوا أخيراً وهم يلهثون ويتساءلون بكل خيبة « إذن كنا مخطئين » وقد تحيل الخيبة الانسان الى كائن لا يعرف سوى التمرد ولا يعيش الا به ولكن على نفسه فقط حتى يموت وهو نادم لأنه خلق ، وربما لا تكون كذلك رغم عناصر الاندحار التي تحملها الخيبة فقد يسرع الانسان مرة أخرى الى الينبوع بعد ان يتكذب طريق السراب .

ويوم أحبتها لم أكن أعرف معنى المستحيل لان افيون الخداع كان يخدر في نفسي كل سؤال ثم يقتله . ومع ذلك فقد رحلت أبحث عن المستحيل وحين كدت أتدحرج من قمة الآمال الى هوة الخيبة السحيقة أمسكت هي بي صائحة ثم ثم علمتني ما هو المستحيل . نعم هي التي علمتني ؛ ان الكثيرين يأثفون من أن تعلمهم امرأة ولكن أي رجل لم تعلمه المرأة الكلمات الأولى . وهكذا فان طريق الحياة من غير نور لا يمكن أن تواصل السير فيه حتى الحشرة العمياء .

لم أكن أتصور يوماً ما أنني سوف أتفلسف بهذا الشكل المضحك - لي على الأقل - انا الذي كنت أجهل مكاني او وجودي ومبرره ، حقوق وواجباتي ، إنسانيتي ، ولكنني تعلمت أشياء كثيرة عن كل ذلك ولم تكن هي التي لقتني إنما أعضاء لي الطريق وظلت أيامي مضيئة بحيي لها حتى اليوم رغم ان الغبار الذي حملته عواصف الايام يكاد يغلف تلك المصابيح ولكن الظلام لا يمكن ان يحول دون النور الى الابد ان ابتسامه الفجر تكفي لأن تفخر بالحياة ودموعه الصافية فيها معنى إنسانيتنا .

لقد كنت أحس بتفاهتي كلما سمعت الطلاب يتناقشون في موضوع سياسي ويتحمسون ويتعاركون أيضاً كنت كعجينة باردة وكان العذاب يعصر روحي ورغبة ملحة تهزني من الخور الذي كان يشل كياني . أي شيء هي الديمقراطية ومعنى هذه الاشتراكية . والرجعية والتقدمية ، والحرية .. نعم .. كل هذا وأكثر من هذا .. كنت أجهل حتى

التعاريف الموضوعية البسيطة . . . لم أكن أقرأ جريدة ولا كتباً غير الكتب المدرسية . . .
ولعل تهاوتي هي التي كانت تضطرنني للكذب أحياناً فهو فضيلة كما يقولون ، ولكن ليس
في كل وقت .

كنا نسير مرة في طريقنا الى الكلية الطبية لحضور احدى المحاضرات وكان الطلاب
يسيرون فرادى وجماعات وكنت أرى وأسمع بعضهم وهم يتجادلون بعنف وكنت أسير
لوحدي على الرصيف تحت أشجار الكالبتوس الضخمة . أجل لوحدي مع ان الشجاعة
الادبية كما يقال قد حطمت أكثر القيود التي كانت تشدني الى الوحدة والانطواء ولكن
شعوري بأني لا أجد شيئاً ما كان يجرنني بعيداً عنهم ، كنت أتلفت الى الوراء هنا وهناك
حائراً ورأيتها تسير لوحدها مرتدية معطفاً أحمر وقد انحسرت ياقته عن صدر يلمع
بالانوتة والحياة والجمال وقد انعكست أشعة الصباح على شعرها المنسدل فوق كتفيها فزادته
سحراً وروعة ، لم اكن انظر اليها بهذه الجرأة قبل ذلك الحين ولكن قلبي خفق بشدة وكأنه
صاح بي : قف أنظر وتمهلتي في مشيها حتى اقتربت وفي تلك اللحظة خلقت
الصدقة التي تجمع رجلاً وامرأة كنا نسير والوهم يجسم لي شعور الطلاب نحوي كنت
لا ألتفت ولا أنظر الى جهة ما حتى الى وجهها ، الى شفتيها الورديتين وهما تفتحان عن
ابتسامة الياسمين بعد الشروق . كان شعوراً خاصاً يهزني والحياء يضغط على قلبي وأنفاسي
ولم تطلق صمتي فسألتي بصوت حنون ونبرة رقيقة كان فيها من براءة الطفولة ما لا أستطيع
وصفه .

- أعجبتك الحفلة؟
- طبعاً ،
- كان التمثيل ممتازاً لو فسح المجال لهذه الفرقة لو
وأجبتها بغباوة كعادتي .
- متى سيمثلون مرة أخرى ؟
- من يدري بعد سنة أقل أو أكثر من يدري ، يضعون امامها الف عقبة ويمنعوها
بصورة غير مباشرة .
- لكن ما السبب والفرقة ناجحة وتشيلها جيد .
وضحكت وهي تقول :
- النجاح هو السبب لو كانوا تافهين لسمح لهم كل اسبوع الشرطة كانت في
كل مكان تذكر؟
- صحيح وانا استغربت ؟ انها مسرحية ، لا أكثر ولا أقل .
وقبل أن تجيبي كانت صديقتها بهيجة قد لحقت بنا وتخطينا باب كلية الطب الى
الداخل وافترقنا . وانتهت المحاضرة قبل ان انتهي من إقناع قلبي بالانتظار ، كنت أريد أن
أقول لها شيئاً ما . . . ولكن ليتني لم أشاهد الحفلة .. كنت أبحث عن وسيلة .. فما أكثر
ما يقول الرجل للمرأة (أحبك) ولكن في السينما فقط ... في الخيال ... حيث
تكون هناك جرأة كافية وخيالي أنا بالذات هو الذي دفعني الى شراء كتاب (الشاعر)
سيرانو دي بروجراك بعد ان شاهده في السينما كنت أريد ان أناجيها مناجاة ذلك
الشاعر الولهان لحبيته ولكن الزورق اندفع بي في غير الاتجاه الى غير الشاطيء الذي
كانت تصوره لي العشرون عاماً من حياتي الخالية الصامته المظلمة وكانت عيناى
تبحثان عنها واذا بها تنتظر تنتظرني أيمكن ان تجامل السماء انساناً مثلي الى هذا
الحد ؟ لقد حمدت الله في نفسي وشكرته أيما شكر . وما كدنا نسير قليلاً حتى سألتني :
- محمود رأيك في المذكرة ؟

- مذكرة ٠! أي مذكرة ٠!؟
 - المنشورة في الصحف اليوم؟
 - لا والله أنا لا أقرأ الصحف الا نادراً لكن المذكرة حول أي شيء؟
 - رفع طلبة الكليات مذكرة الى الجهات المسؤولة حول الوضع العام في البلاد وكليتها
 طبعاً من بينها.
 - سأشتري جريدة لكن في أي جريدة؟
 - أنا سأعطيك النسخة التي عندي
 - لا..... أنا سأشتري واحدة
 - ولكنني قرأتها.... على كل حال إشتري واحدة. نسيت ان أخبرك ان فيها كلمة ليزكي
 - صحيح؟ زكي؟ لكن لماذا لم يخبرني؟
 - لماذا تتعجب؟! ينشرون له في كل اسبوع او اسبوعين كلمة ومنذ عدة شهور
 - محمود ٠٠٠ أتراسله؟
 - نعم،
 - اذن ارجو اذا كتبت له اكتب له تحية مني ومن أخي شوكت.
 - أليوم أكتب له رسالة.
 * * *

لم يكن عمي قبل مساء ذلك اليوم قد رأني أقرأ صحيفة سياسية أبداً كما انني لم افكر ان له رأياً خاصاً بهذا الشأن بل لم اكن اعلم انه يتفحص كتيبي ويدقق النظر في مكتبي ولعله لم يكن يفعل الا بعد ذلك المساء حين جلسنا في غرفة الاستقبال بعد العشاء تتحدث قليلاً كعادتنا كل ليلة ونُح الجريدة على المنضدة مع الكتب فأطال النظر اليها ولم يقل شيئاً إلا ان نوعاً من الرعب إرتسم على وجهه وهو يقرأ اسم الجريدة ثم سألتني :

- محمود ٠٠ بابا اليوم عندك جريدة ، السبب ؟

- اي والله يا عمي أخذتها حتى اغلف بها كتيبي .

- لكن لماذا لا تشتري حقية ٠٠؟ أليس عندك نقود ؟

- عندي ٠٠ عندي ٠٠ لكن أكثر الطلاب لا يحملون حقائب

- لماذا ؟ عجيب !

- ثقيلة ولا داعي إليها .

- الحقبة احسن من الجريدة يا بني

ولزمت الصمت ، فماذا أجيبه ؟ أأعترف له بالسبب ؟ هذا محال ثم انه قد صدقني

بشكل عجيب مع اني كذبت عليه ولعله تظاهر بتصديقي .

وإذ لم أجبه عاد متابعاً :

- وهل قرأتها ؟

- اي نعم

- أأعجبك شيء فيها ؟

- والله يا عمي تريد الصدق ٠٠٠ إذن فاقول لك اي والله .

- أنت لم تر بغداد ولم تعرفها بعد يا بني . انت لا تزال بعد صغيراً وأنا - كما تعلم - لا

أريد لك غير الخير والدين النصيحة ٠٠

- ماذا تقصد يا عمي ؟

- أقصد هذه الجريدة .. واذا اردت ان ترضيني وترضي أباك فاتركها لاني اسمع عنها كثيراً

- يعني ماذا تسمع ؟

- يقولون انها تكفر والعياذ بالله وما لك ولهذه المسائل وانت طالب في الكلية ؟

- طيب يا عمي سوف لن تراها معي مرة أخرى.

وتركني عمي ومضى لينام وقبل أن ابدأ بمطالعة الدروس أعدت للمرة العاشرة قراءة المذكورة وكلمة زكي ايضاً ولكم فرحت بها . لكأني انا الذي كتبتها ، كنت أشعر بانفعال عجيب كلما أعدت قراءتها . انني لم أعرف زكي على حقيقته الا هذه المرة . كنت اتصوره جالساً معي يحدثني بصوته القوي الثبرات ولهجته التي تقسو أحياناً ، كانت الكلمة المنشورة صغيرة ومحصورة في مستطيل وفوقه كلمة (بريدنا الادبي) وتحتها ما يلي :

جاءنا من السيد زكي حسون في الديوانية الكلمة التالية بعنوان « الموكب الصاعد »

ان الانسان الذي يعمل عن وعي وادراك وثقة لاجل الخلاص مما يشوه الانسانية ويمسخ كرامتها ومن اليهودية التي يخيم ظلامها على عقله ومن القيود التي ترسف بها حرته ؛ ان هو الا مظهر للحياة التي تتمثل بها الحضارة .

وهناك المتفرجون الذين يسرون على الرصيف ؛ يتسلون بمشاهدة الطريق المقروشة بالجماجم والاشلاء وكأنهم ينتظرون ان ينتهي غيرهم من تعبيد الطريق ليتحولوا اليها ، ان اولئك ليسوا سوى مظهر للتفسخ الوجداني والانحلال الذاتي والعمق الفكري ، وانسان من هذا النوع لا تزيد قيمته عادة على قيمة حشرة - مع انه انسان ايضاً - حشرة لا أكثر وربما اقل .

فنحن مدينون لشهداء الحرية في كل مكان . حرية الانسان في كل زمان نحن

مدينون لهم بما لدينا من قيم نعتز بها وممثل تنافح عنها . الشهداء الذين يضيئون
لموكب الانسانية طريقه الى الابد « والى كل الاحرار ابعث تحيتي »

وأخذت ابحت عن وسيلة مقنعة يهدأ لها ضميري وقلبي فلم أجد غير ما أرشدني
الواقع اليه . كان في مدخل الشارع المؤدي الى بيت عمي دكان لبقال عجوز لم تكن معرفتي
به لتتعدى السلام صباحاً وعصراً وكان يبدو طيباً بملامحه وابتسامته وحتى الطريقة التي يرد
بها علي التحية . ومر أسبوع وانا أحاول توطيد المعرفة بيننا حتى جاء الوقت الذي فاتحني
هو بحاجته الى الورق للنف السكر والشاي فأخبرته ان عندي جرائد كثيرة وفرح ثم شكرني .
وبعد ذلك كنت اعطيه الجريدة كل يوم بعد ان اقص منها ما يعجبني وأحتفظ به . وفي عصر
يوم لحظت ان ابتسامته تقلصت ونظرة غريبة رمقتني بها وهو يرد تحيتي وفي المساء فاجأني
عمي :

- محمود أنت وعدتني أنك لن تشتري الجريدة .

ولم أجه ، لقد فهمت ما يعني تماماً فالبقال لاشك أخبره . ثم تابع هو بلهجة عتاب
ونصح .

- «للحايض أذان» يا ابني انت في بغداد وانا اخاف عليك ولنفرض انك تحب قراءتها فلماذا

تعطيها للبقال أتعرفه ؟ أيعرفك ؟

وتحرك لساني اليابس في فمي :

- حسبته يستعملها في الدكان .

- يا ابني الشياطين بكل مكان ترى وتسمع ولا يراها ولا يسمعها أحد .

- ولكن يا عمي الجريدة تباع بكل مكان في بغداد والناس يشترونها

- صحيح .. ماذا تعمل بها ما دام عندك راديو تسمع الأخبار ؟

وهممت ان اعترض كأن أقول مثلاً « ولكنها ضرورية » و « لماذا لا تحب ان

أقرأها » ولكن الحياء عقد لساني ولمع في ذهني خاطر فسألته بهدوء :

اسمح لي يا عمي هل تقصد كل الصحف او هذه بالذات .

- لا .. لا .. الكل .. الكل .. الله تعالى سائر علينا أترك هذه المسائل،

اوصيك يا ابني ولا تجعلني ألح عليك بعد .

واضطرت اول الامر للانقطاع عن شراء الجريدة التي كانت مديحة اول من

هداني اليها . ولكن الايام كانت تمر مظلمة .. وفي المساء حين اضع راسي على الوسادة

تتجمع هموم كثيرة تنغص علي راحتي وتؤرقني . فماذا أقول لمديحة اذا سألتني عن السبب ؟

كنت أشعر بالتفاهة حين أتصور نفسي وأنا أخبرها عن عمي واتخيل ابتسامتها الساخرة .

كنت أرى في عينيها بريق الرضا والنشوة حينما تقطع الطريق التي اعتدناها كل

يوم ونحن نتحدث عن الافتتاحية او عن بعض ما في المحليات او عن الصفحة الاديبية

وهكذا .. ولكنني بدأت أهرب منها خجلاً .. ولا أحاول ان التقى واياها ولكن عبثاً ..

لقد كنت اخدع نفسي لا أقل ولا أكثر .

كانت ادارة مستشفى المجانين المجاور لكليتنا تسمح لغير الخطرين منهم بترك
المستشفى فكان بعضهم يتجول في الممر بين كليتنا وكلية الطب في الحدائق وعلى الارصفة
فمنهم من يلتقط اوراق الكلبتوس اليابسة ويسحقها براحتيه ويلف المسحوق بقصاصة ورق
يلتقطها من الارض ايضاً او يستعيرها عن يلاقيه ويجعل من ذلك لفيفة يستششق دخانها
بزهو وفخر . ومنهم من يقوم باعمال الكنس والتنظيف ولا يبدو عليه أنه فقد شيئاً من
وجوده أبداً لولا مظهره الذي يرسب في النفس شعوراً بالحزن .

كانوا يعيشون لغير ما سبب عدا لكونهم بشراً ، يكون ويضحكون ويتألمون
ويفرحون... ولكن النزاع .. الحرب فيما بينهم هي الوسيلة الوحيدة التي ينتهي اليها وبها
كل شيء بينهم .

وكان أحدهم يدعى (حمندوش) قصيراً أسمر البشرة يلف رأسه دائماً بخرقه
يعتز بها وبلونها الذي تكون من مجموعة اوساخ وقذارات ؛ اما لحيته فكان يصر على اهمالها
ويستهين بقطع رقبته دونها وكان حين يستبد به الطرب يجمع عدداً كبيراً من
المرضى معه ثم يتوسطهم ويشرع في الغناء بصوت عال ولم يكن ليفرحه شيء أشد
من ان يقترح عليه أحد غناء (المقام الحمدوشي) الذي ألفه ولحنه هو كما كان يقول
بفخر واعتزاز .

كان زملائي الطلاب يكثر من ذكر حمدوش هذا وبعضهم يتندر ويضحك وآخرون كانوا يبدون ملاحظات لم أكن لأكثرث بها أول الامر الا أنها بمرور الايام كانت تؤثر على مجرى تفكيري وتترك فيه انفعالات شديدة . واذكر ان احد الطلاب اقترح على حمدوش مرة ان يغني أغنية مشهورة في الجنوب وهي (هلى يا ظلام هلى) واذا به ينقلب الى وحش هائج وكاد ان يخنق الطالب الذي امتقع وجهه واخذ يستغيث ، وقد اخبرنا الاستاذ فيما بعد أن حمدوش هذا قتل أمه عن غير قصد فقد كان يضنها تعارض في زواجه من فتاة يحبها ولم يتبين الحقيقة حتى اليوم فقد قتل عقله وعواطفه مع أمه ولم يبق منه غير مجنون ؛ مجنون لا أكثر .

ولم يكن حمدوش وحده مثار اهتمام الطلاب بل المرضى الذين كنا نراهم أشباه عراة في الشتاء القارس حين يمرحون وحين يحزنون . أما طعامهم فكان نوعاً خاصاً عجباً لقد رأيت أحدهم مرة يحمل صفيحة قدرة فيها ماء أسود وظنته ينظف (دورة الماء) واستفسرت مستغرباً من أحد الزملاء عن ذلك فأجابني :
- الشاي ... ماذا تظنه ؟

وأجبت والدته بادية على وجهي :

- صحيح ؟ هذا هو الشاي الذي يشربونه ؟ . والذي سمعت عنه ؟

- أتعجب ؟ انهم مسوخ ... رغم انهم كما ترى في المستشفى .

ومع ان أحد لم يكن يجهل أن حياة المجنون لا قيمة لها وهي بهذا الشكل فقد كان لها قيمة عندهم هم على الأقل .. ولن أنسى موت حمدوش ، فقد سمعتهم يصرخون ويبيكون يوم مات حمدوش وحمل الى غرفة التشريح بالكلية الطبية وكانت الرطوبة سبب موته .

ولم أكن وحدي قد تألمت يومذاك لموت ذلك الانسان بل كنت ألاحظ التأثير في وجوه أكثر الزملاء أيضاً ؛ وهم يرددون « طبعاً يموت ما دام يعيش هكذا » وغادرت الكلية واحساس عنيف بالألم ينهش وجداني ، كنت أسير مطرقاً وأستعيد الماضي

القريب جداً لذلك الانسان البائس الذي مات يوم ماتت أمه ولكن وجوده لم يمت الا اليوم كنت أسير وأتطلع الى سور المستشفى العالي القديم الذي يبعث الأسى أكثر من أى شيء لمن يعرف ما وراءه من الحقيقة .

وكنت قد نسيت أحد كتبي في الكلية فعدت لجلبه واذا بي ومديحة وجهاً لوجه ؛
أنا الذي كنت أتهرب منها وأتعذب ، سألتني :
- ها محمود رجعت ؟
- نسيت كتابي .

وحين عدت بالكتاب رأيتها تتباطأ في مشيتها وأحسست بالخرج والرغبة في الهزيمة تداعب أفكارى الحمقاء ولكني مشيت كمن يمشي لمحكمة وما كدنا نمشي خطوات حتى
سألتني :

- أنسيت الجريدة أيضاً ؟
واجبتها بلهجة تمثيلية أتقنتها كأبرع ممثل :
- أوه اي والله لكنني تعبت ولن اعود مرة أخرى .
- هل قرأتها ؟
- لا ليس لدي الوقت الكافي . . وعلى كل حال سأشتري غيرها .
- لكن لماذا لا تجلبها . . ؟ انها على بعد بضع خطوات .
لا . . سأشتري غيرها . . .

وتعمدت بنفس البراعة التمثيلية أن أغير موضوع الحديث فسألتها :
- أرأيت كيف مات المسكين حمدوش ؟
- الحقيقة أنني تأملت كثيراً . . . تصور أنهم يموتون بالجملة وبشكل فظيع .
- ولكن لماذا لا تعالج الحكومة وضعهم هذا ؟

— أتتعجب لهذا؟ المسألة معقدة ولها جذور عميقة .
وفي موقف السيارات أخبرتني أن في الجريدة إعلاناً عن كتاب صدر حديثاً وأبدت
عجابها به لأنها سبق وقرأت (طبعته الأولى) .
وذهبت الى البيت ومعني انكتاب المعلن عنه بعد ان ابتعته من سوق البراي .

* * *

وفي العطلة الصيفية بعد أن فزت بدرجات ممتازة ذهبت الى الديوانية وفي حقيقتي
قصاصات كثيرة من الجرائد وثلاثة كتب كنت أعتز بها أكثر من نجاحي وكان
شغلي الشاغل مطالعتها طيلة مدة إقامتي عند أهلي أما أبي فقد خفف من
غلوائه في التهجم علي ورغم انه لم يكلمني بلهجة لينة ولم أره منشراحاً الا انه كف
عن اللهجة القاسية والاسلوب البشع في معاملتي وكان يسألني دائماً ماذا تقرأ ؟ فاجيبه
(دروس الصف الثاني) ولم تكشف حيلتي الا يوم زارنا ابن خالتي الضابط ولمح كتاباً
بيدي ففغر فاه واتسعت عيناه ثم سألي :

- من أين لك هذا الكتاب ؟

- اشتريته من السوق .. لماذا ..

- ولماذا تقرأه ؟

- انه كتاب جديد مفيد .. فيه أشياء كثيرة ما كنت أعرفها .

لكن من أخبرك عنه ؟

وتدافع القلق الى نفسي من نظراته التي تنضح لؤماً ولم أخبره عن الجريدة بل
انقضت الجراب هكذا:

- لم يخبرني أحد؛ وجدته في السوق فاشتريته.
وكان يوماً اسود ذلك الذي أحرق فيه أبي الكتب الثلاثة وطردي من البيت وهو يرتعد
- الذنب مو ذنبك .. الذنب ذنبي .. ذنب عمك الي ذلك يا ابن الكلب . اطلع ..
اطلع من بيتي .. كافر .. نجس ..

كنت أتمنى لو ان ابن خالتي كان حاضراً لأقول له شيئاً ما لاسأله مثلاً : ما
شأنك أنت بي بعد أن لم أتجرأ على اجابة ابي بغير جمع ملابسني وحاجياتي والعودة الى
بغداد من حيث أتيت .

كان أبي يرسل لي دينارين او ثلاثة كل شهرين أو أكثر ولم أكن بحاجة إليها فقد
كان عمي يكفيني من هذه الناحية وكان ظني حسناً بأبي لولا أن علمت بعد ذهابي الى هناك
بالحقيقة ومنه بالذات إذ اندرني بقطع مساعدته ! ومع ذلك فما ألمني شيء منه مثل حرق
الكتب الأولى التي قرأتها ، تلك التي رسمت في ذهني معالم الحقيقة ، ولم تسكن إقامتي عند
أهلي لتزيد على شهر واحد وفي تلك الايام القليلة كنت أقضي بعض الوقت مع زكي الذي
كان يبدو مشغولاً دائماً ومستعجلاً . كان يذهب الى بغداد كل يوم خميس . وفي الأوقات
التي كان يتغيب بها كنت ألتقي بعض اصدقاء الطفولة والمدرسة والغريب اني لم أعرف
ان كثيرين منهم يدرسون او يعملون في بغداد الا وقتذاك ، فقد مرت شهور السنة الدراسية

الاولى ولا اذكر اني ذهبت الى السينما اكثر من ثلاث او اربع مرات وكان الطريق بين الكلية وبيت عمي هو سبيلي الوحيد لسعادتي واحلامي . وبعد الايام الاولى كانت معرفتي بمديحة واحساسات الحب الساذج تكاد تكون الحافظ الوحيد لرواحي ومجيشي كل يوم رغم القلق والضجر . ولم أحضر الحفلات الكثيرة التي كانت تقام في الكليات الأخرى إذ أنني صرت أبتعد أكثر فأكثر عن كل حفلة او اجتماع كلما تذكرت لحظات الحرج الذي تولاني في حلقة التعارف يوم تركت الشريط الاخضر على صدري بعد الانتهاء من الاكل ولو لا ذلك لكنت تعرفت على آخرين من أبناء بلدتي في بغداد على الأقل .

ويوم عدت الى بغداد كنت أستعجل أيام تشرين . . . وأبتداء الدراسة لارى تلك الآسفة الحبيبة الى قلبي والتي لا تفارق ابتسامتها مخيلتي ولا يزال صوتها العذب يتردد في اعماقي كنغم هاديء جميل مديحة . . . التي عدت أحس بحاجتي اليها ، لا ادري لماذا . . . حتى غزل لي الوهم فكرة أن اخبرها بما صنع أبي .
وفي بيت عمي كنت أحتال كثيراً في اخفاء الكتب التي اشتريتها مرة أخرى ومنهما اربعة أخرى كان في غلاف كل منها اسم الكتاب الآخر كأنما يتمم بعضها بعضاً كقصة في عدة اجزاء متعددة .

وكان نجاحي قد جعل من عمي انساناً عكس ما توقعته . كنت اتوقع بعد أن تصله رسالة من أبي أن يغير موقفه مني ولكن العكس هو الذي حدث ولقد تبينت فيما بعد أن طريقته في معالجة ما يريد من المسائل من نوع آخر غير التي اعتادها أبي وقد كان يقرأ في اوقات فراغه بعض الكتب الدينية والتاريخية ويحتفظ ببعضها في محل عمله والبعض الآخر في حجرته الخاصة في البيت وبعد ان بدا له أنني أصر على قراءة الكتب التي لم يكن يرغب في ان يراها عندي أخذ يناقشني وكان يفحمني بالحجج والبراهين الكثيرة التي يستقيها من الاحاديث النبوية واحياناً من الايات القرآنية ويستعين بالحكم والامثال . . .

ولكن رغم كل ذلك ورغم حججه وبراهينه وتنازلي المستمر له عن اقواله واعتراضاتي أمام الاجهاد الذي كان يبدو عليه وهو يكلمني لم أفكر في ان ألبى طلبه الذي كان يختفي خلف كل كلمة يتفوه بها وهو أن لا أقرأ غير دروسي .

وفي آب من ذلك الصيف وكانت الشمس لاهبة والهواء لافحاً والنهر لا يدخل من عشرات السابحين من الاطفال أمام « الجراديع » القليلة المنصوبة على الشاطيء الرملي بمحاذاة الماء وبين زوارق الصيد والزوارق البخارية الراسية . وكان بعض الشباب قد نصبوا « جرداغاً » على الشاطيء وأمام بيت عمي تماماً . وكنت اتخذ لي كرسيّاً على السدة عصر كل يوم لامتع روحي بمشاهدة العابهم الرياضية التي لا تخلو من دلالة على القوة والنبوغ رغم أساليها الساذجة . ويوماً بعد يوم أخذ بعضهم يحييني حين يمر بي نازلاً الى الجرداغ قبيل الغروب . وسمعتهم مرة يتذمرون من الصباح النفطي « لو كس » الذي يستضيئون به فنزلت اليهم وعرضت عليهم أن يمدوا سلكاً الى البيت فشكروني كثيراً وبعد قليل كان المصباح الكهربائي يضيء الجرداغ وتمتد خيوطه الى صفحة الماء المنساب عذباً ررقاقاً . وشرعت صداقتي بهم تتوطد فبدأت اشاركهم في السباحة والاكل حيث أنهم في كل ليلة يشوون سمكة بطريقة « الزكف » على أن يدفع كل منهم حصته من ثمنها . كانوا اربعة ، جاسم الرياضي ذو الجسم الضخم والعضلات المتفولة والذي ينكت دائماً ولكن على نفسه فيضحك الجميع منه ، وعباس الصامت الذي كان صمته يوحي لي أول الأمر بأنه يلازمه لسبب محترم ولكن تبين لي فيما بعد أن البلادة التي يتصف بها هي السبب وهي موزع سخريه جاسم دائماً . أما الثالث وهو « طالب » فكانت مهمته الغناء ، فكان صوته وهو يغني أجمل بكثير مما أسمع في الأذاعة وكان لديهم زورق خشبي صغير يعدون به عن الشاطيء . وعند ذلك يشرع طالب بالغناء وكان يجيد حفظ الاغاني الجنونية التي تعجبي الى حد كبير . أما وهاب وهو رابعهم فقد كان انساناً آخر يختلف عنهم تماماً في تفكيره وأقواله رغم أنه يشاركهم الأكل

والغناء والسباحة والتكيت والضحك الا اني شعرت أنهم يحترمونه كلما تطرق الحديث الى القضايا السياسية .

وما كاد الاسوع الاول يمضي على هذه الصداقة حتى اصبحت واحداً منهم فقد كانت عاداتهم شبيهة بعادات أهل الجنوب ولم أجد صعوبة في سلوكي معهم كما لم اتكلف أو اتضع تصرفاتي معهم ولم أكن أول الأمر اعرف ماذا يعملون نهاراً ولكن سرعان ما يكشف الانسان عن سخطه اذا لم يكن راضياً عن عمله . فعين المظلوم تنام ولكن عين الله لا تنام كما كان جاسم يقول .

كان جاسم مستخدماً في دائرة حكومية وراتبه ضئيل وذلك هو السبب في شكواه باستمرار او تمردده الذي كان ينزلق على لسانه سياباً وشتائم على المدير الذي لا يرقبه لانه « اي جاسم » شيعي المذهب بينما المدير سني . وكان يمثل بجسمه الضخم بعض حركات المدير وقد يبرع في تمثله بسبب الالم الذي كان يعاينه والذي لم يفلح في إخفائه بالنكات والضحك .

أما عباس فكان عاملاً في احدى المطابع وكان قد مضى عليه ثلاث سنين واذا بالزيادة التي لحقته ليست سوى نصف دينار ولكنه لم يكن يتكلم عنها الا قليلاً جداً اذا استفزه جاسم مثلاً بقوله « نايم يا شليف الصوف » قيتشاتمان قليلاً ويتعاتبان بعدها فيقول عباس .

- يا جماعة بالله عليكم يريدني انحبس ... شايقين ؟

ويجيبه جاسم :

- انت مخنث .. العمال كل يوم يطلعون مظاهرات

وعندئذ يحقق عباس فيجيبه .

- يمكن أنت وياهم ها ؟ آني مخنث!!؟ انت المخنث! .. انت لو بيك خير سموك

خير الله .

- أنت تعرف لغوة بس .. أنت أحسن مني ؟ لا .. يعني معاشك أكثر مني ؟ لا .
- لكن على الاقل آني كفرت المدير بالعرايض والمطالب .
- العرايض ما تفيد كل شيء بالواسطات .
وعند ذاك يشرع طالب بانغناء لينهي المسألة كي لا تتطور الى ما لا تحمد عقباه .
وفي احد الليالي تبرع طالب بثمان السمكة وكل ما لحقها من توابع بعد ان تم نقله الى بغداد
بعد سنتين قضاها في العمارة منذ اول توظيفة في مديرية النفوس .
وكننا في الزورق بعيدين عن الشاطيء وكدنا نقرب من الشاطيء الآخر حيث
النخيل الممتد مع النهر وكان وراءه غابة مخيفة ؛ وانتهى دور الغناء وأخذنا نتحدث مع بعضنا
واذا بجاسم يقول لوهاب :
- راح تنظم قصيدة لطالب ؟ ..
وضحك وهاب قائلاً :
- لا .. الا اذا ! لكن من يحزر .
وأجابه طالب توأ :
- الا اذا رجعت لك الكتاب .. تمام ؟
لا ..
- وتابع جاسم :
- الا بسمكة .
لا .
- واذا ببجاسم يخرج من صمته قائلاً :
- الا اذا تزوج
وضج الجميع بالضحك فلم يتوقع حتى وهاب نفسه ان يحزر عباس المسألة فاستغرق
في الضحك قائلاً :
- والله يا عباس انت تستحق قصيدة .

واقف وجدت كتباً كثيرة في مكتبته وسألته عن الكتاب الذي أخبرني عنه مديحة
والذي أحرقه أبي واشتريت نسخة أخرى منه فأجابني :-

- انه من الكتب الممنوعة الا اني احتفظ بنسخة منه رغم اني معرض للتحري .
وسألته :-

- للتحري عن أي شيء ؟

- عن كتب ممنوعة مثل هذ الكتاب وغيره .. لماذا ؟

- لكنني اشتريته من السوق في الصيف وهو لا يزال عندي .

- صحيح وهو لا يزال يباع الان في السوق ولكن كى يشتريه واحد ما ، مثلك مثلا

ثم يقدم للمحاكمة بتهمه حيازته عليه .. لا تبقه عندك اعطنيه .

ثم اخذ يتحدث عن امور لم تكن لتخطر ببالي أو اعرف عنها شيئاً ، وبمرور الايام

كان تفكيري قد وجد ملجأ في ظل ذلك الشمع الذي كان ينمو بسرعة ، كان وهاب في كل

تصرفاته الخاصة انساناً عجبياً لم ار مثله قبل ذلك الحين ، فبمثل البساطة التي تم تعارفنا بها

كان يعاملني حتى كأنه يعرفني منذ زمن بعيد .

.....
أي زمن هذا الذي تعيش فيه ؟ واية أعباء هذه التي تكاد تقصم ظهورنا .. نحن .

وحدنا ابناء هذا الجيل ؟

ان الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان ، هو الجوهر الذي تكمن فيه الحقيقة ،

ولكن عظمته لا تظهر الا بظهور الحقيقة ، حقيقته هو ، الحقيقة التي تقول ان الانسان اثنان

ما على هذا الكوكب من الموجودات ولعله من هنا يعانى دائماً الالم لان هناك من يحاول

مسخه والتجارب التي نعيشها تبرهن على ما همتنا ؟ ان مرارة التجربة لاتعني شيئاً في نظر

التاريخ الحقيقي للانسان اذا لم تكن تلك التجربة قد هيأت مصباحاً في طريق الحياة وهذا

هو الزمن الذي نعيش فيه ، ليست اعباؤه في اننا نريد كل شيء أو اننا نحب فنخب فيأس

أو نجوع فتمرد وثور .. لا ! ليس في ذلك انما في اننا نحن ابناء هذا الجيل ما ان نكاد

تمضي خطوة في طريقا حتى نجد انه سنا في مفترق طرق كثيرة وسؤال ينتصب امام بصائرنا بشكل مفزع إلى أين؟ ان متاعنا في هذا السؤال ... وهنينا لمن يجيب عنه بثقة فالذين يتخطون هم وحدهم العاجزون عن الاجابة .

ولقد كان على ابواب السنة الثانية من سني دراستي في الكلية نفس ذلك السؤال :-
(الى أين؟) وكان نوع من الغباء والرعب يجرني بعيداً عن مجرد التفكير بجواب ما ، ولكن مديحة كانت تقاوم أو ان حيي .. عواطفي .. هي التي كانت تحاول الوقوف بوجه التردد والخوف .. لتقول شيئاً ما للتاريخ فالايام المضيئة هي التي يجد الانسان في هداها طمأنينته .. وهي تاريخه ايضاً .. سيما اذا ارتبطت تلك الطمأنينة بالثقة بالنفس ومعرفة الحق والعمل لأجل ان تكون حياته افضل مما هي عليه وعلمت ان زكي موقوف وسيقدم للمحاكمة قريباً وكان عمي يردد على مسمعي كل يوم صباحاً ومساءً :-

- ابني استر علي .. الله يستر عليك .. اخاف عليك

- وأجبت مندهشاً :-

- لكن ماذا عمات يا عمي؟

- انت تخفي علي . أنا ادري .. لكن الاتري ؟ الا تسمع ؟ كل يوم ياخذون واحد ويفتشون البيوت ، ومالك ولهذه المسائل ، مالك وللسياسة ؟ اعوذ بالله من الشيطان ، اللهم استر علينا بسترك الجميل .

وكنت اذهب للكلية وصدي اقواله تتجاوب في راسي فتمزق شجاعتي وجرأتي التي اجمعها في وحدتي لاقول لمديحة شيئاً ما . وفي صباح يوم جاءت مديحة منشرحة غاية الانشراح وفاجأتني بقولها :-

- عندي شيء لك احزر ما هو ؟

وكادت الدهشة والفرح يطيران لي فقلت مبهوتا :-

- خير انشاء الله ؟

- احزر ما هو ؟

ينفذ الى الجسم رغم ملاس الصوف اشترى هو بدلة مستعملة بسعر زهيد جداً واكتفى بأن خسر عليها ربع دينار عند المكوى لازالة ما عليها من بقع .

في حين دأب يشترى الكتب رغم فداحة اثمانها ويبيعها لهذا وذاك لكل من يرغب لم يكن أحد يعلم أنه يحمل فكرة نبيلة الى هذا الحد ، كان يقول لي دائماً -

« انت لا تدري أنت جديد هنا الا انك مواطن مثلي تماماً ولكن أتعلم ان

ليس في المحلة كلها مكتبة واحدة ؟ توجد مواهب وقابليات في كل مكان ولكن المدارس لا

لا تعني بشئ من ذلك ابداً . هذا من واجب الواعين يجب أن توجد مكتبة ونادي وجمعية

أدبية وجمعية تعاونية يجب ان تصل الجرائد الى هنا تصور ان احدا من كل الناس هنا

لا يخطر بباله ان يقرأ جريدة عدا بعض الموظفين من ابنائهم ، هذه الناحية بحاجة الى

كل ما يتطلبه الانسان لكي لا يفقد انسانيته لكي لا يسبخ .. ولكن .. من يسمع . »

وهاب النحيل الجسم المتعب العينين دائماً من كثرة القراءة كان يتكلم وكأنه يحمل

هموم الدنيا كلها على صدره ولذلك زادت طبيته ونبله فهو سريع الغضب سريع الرضا

ويحاول تجاهل همومه والتفكير بمشاكل الآخرين وآلامهم حتي اصحابه الذين توطدت

صليتي بأكثرهم كانوا يبدوون ملاحظات قاسية عنه كان يقول له احدهم :-

وهاب ، تريد تصير عالم ؟ دائماً قراءة .. مطالعة . كتابة . والنتيجة . ماذا تريد ؟

أو يقول آخر له :-

- انت تتعب نفسك (من غير داعي) .. لمن ؟ على من ؟

وقد التفت الي ذات مرة وسألني بمرارة :-

- أترى ؟ كل هذا جهل .. هذه انانية سببها الجهل .. هذا مرض ، صحيح ؟

كنت بوصفي (غريباً) لا اجراً على الرد على احد من اولئك بلطفة نايبة او لهجة

للسية ولكن الواقع هو ان مودتي لوهاب كانت تنمو بمرور تلك الايام حتي اكتسبت ثقته

وهو كذلك بالنسبة لي . وقد وجدت طريقي الى القهوة المحلة لأقضي فيها بعض الوقت وكنت

الحظ ان عمى بدأ يضيق بتصرفي ذلك ولم يكتم شعوره ذات يوم اذ خاطبني :-

- القهوة لاتصلح لك .. انت صغير يا بني .. انت تلميذ ،
- لكن يا عمي لي اصدقاء ياتون الى هناك وانا لا اناخر ، هل تأخرت مرة ؟
- لكن ألا ترى ، لقد شاب رأسى وانا لم أجلس في القهوة ! ماذا فيها ؟ طاولي
دومنة .. طاق طيق ولغوة الراديو . اتفيد ؟
ومرة اخرى حين دعوت وهاب الى البيت قال لي وهو يفرك لحيته براحته ، مبدياً
عدم ارتياحه :-

- محمود .. هذا الولد وهاب لا يعجبني .. انى سامع عنه اشياء كثيرة .
- ما ذا يا عمي ؟

- يقرأ الجرائد في القهوة ويتدخل بالسياسة وانا اوصيك ان تتجنب ذلك ،
- والله يا عمي انا لم اعرف في هذه المحلة شاباً مثله وهو صديقي ،
- استغفر الله ربي واعوذ به من الشيطان ، ادري صديقك ادري ، لكنه يضرك ،
يضرك يا بني ، يضرك اكثر من أي عدو ،

لكن هيات ، لقد حرت في طريقى ، لم ابال ولم اكثر ، فقد صرت اجد ان في
اقوال عمي شهاً كبيراً بما كنت اسمعه من ابى عن زكى صديقى .

كنت اذهب مع وهاب الى بيته او الى المكتبة العامة والمسئمة احياناً حتى صارت
الصراحة بيننا شيئاً عادياً ولكن شيئاً واحداً لم اطلمه عليه هو علاقتى بمديحة ، كنت اشعر
بالخجل كلما هممت بمفاتيحه بهذه المسألة وكان لرأيه الذي كثيراً ما يصرح به عن الحب اثر
في ان لا ادعه يعرف شيئاً ما عن هذه العلاقة ، لقد كان يتندر كثيراً بالحلب الذي كان يصفه
بضياح الوقت والعبث والميوعة والاستهتار احياناً والتخث احياناً اخرى . وقد اطلمني مرة
على قصائده وقرأتها وكانت تعجبني رغم التعليقات القاسية التي كان يضيفها هو فيما كنت اقرأ
كان يقول « كم كنت سخيفاً » و « من حسن حظى انى لم انشر شيئاً من هذا الشعر بوقته »
و « الذي لا يعترف بخطأه ويتلافاه احمق كبير » وهكذا كان يؤكد على انه لم يعد يؤمن
بالفكرة السخيفة التي كانت تكمن خلف كل كلمة من اشعاره ، رغم احتفاظه بها .

وسألتهم أنا بدوري :

- إذن وهاب شاعر عظيم عظيم

وأجاب وهاب بتواضع

- يا شاعر يا تمر لا تصدقهم ، كذب في كذب

ولكن جاسم عاد فأكد :

- لا والله انه شاعر واذا لم تصدق فسأتي لك بالجريدة لتقرأ قصيدته .

قلت أي جريدة

وصمت قليلاً كمن نسي الاسم فأجاب طالب :

أظن بالعالم العربي

واعترض جاسم قائلاً :

- لا لا أظن بالوطن او لا اذكر لعن الله الشيطان .

فقال وهاب :

- بالاهالي

واجتاحتني موجة من الفرح فغمرت كل احساساتي حتى كدت أفقر من مكاني

واصافحه ثم تابع :

- لكن كان ذلك منذ زمن ليس الان توظفنا واتتهت المسألة .

- يعني تركت الشعر ؟

- لم أترك الشعر ، انما نظمت الشعر ، وقي ضيق .

والنفث إلي طالب وكأنه يعتمد تغيير الموضوع قائلاً :

- طالب الله يخليك أغنية ارجوك ارجوك يا سعد ارجوك .

وعاد بنا الزورق يتهادى وكنت سعيداً تلك الليلة وشعرت بأن الحياة لا قيمة لها من

غير أصدقاء طيبين كهؤلاء رغم اني لم أقض واياهم الا ساعات قليلة .

ورفعنا اعواد «الجر دراغ» بانتهاء الصيف ولكن صداقتنا لم تنته ، كان وهاب هو اول

صديق كسبته في بيئتي الجديدة فقد وجدت شهاً كبيراً بينه وبين زكي لو لا أنه يفعل
انفعالات عجيبة أحياناً سيما اذا احتدم النقاش السياسي بينهم حتى يبدو وكأنه شخص آخر
الا انني كنت احترمه كثيراً فقد عرفت أنه يحرص على اقتناء الكتب الجديدة المفيدة وأن
الكثيرين من أبناء المحلة يستعيرونها منه مع أن بينهم من هو أقدر منه على شرائها فوهاب
لم يكن غير موظف بسيط مغمور وكان يقول عن نفسه « السبب عميق في كوني مغموراً »
وحين ابتدأ الدوام في الكلية كنا نذهب مماً كل يوم الى بغداد ، وهاب الى عمله
وأنا الى الكلية . كان يشير لي بيده نحو بناية الدائرة التي يعمل فيها قائلاً .

انظر أترى ؟ أنا حبيس تلك القلعة

وكان دائماً يردد الموظف ؟ الموظف مسكين الوظيفة لا تبقي على شيء فيه انها
تمتص حياته وتلقيه كما تعصر اليد القوية ليمونة او رمانة وتلقى بها الى القمامة ومع
ذلك فالشباب يفرون من الموت الى الموت ... مع الأسف الشباب أجل الشباب .

٦

كانت صداقتي مع وهاب اول الأمر لا تتعدى الأحاديث العادية وفي أكثر الأحيان
يكون هو المتكلم أما أنا فأصغي اليه . كان يحدثني كثيراً عن وظيفته وما يقاسي فيها من
ارهاق وتأثير ذلك في صحته كما يشكو من تأثير المحسوبيات والمنسوبيات التي هي السبب
في تخلفه عن زملائه الذين ارتفعت رواتبهم الى أرقام عجيبة وكنت أتألم حين يعرض علي
تلك السطور من حياته . كان ادبياً يجيد اتقاء الالفاظ ويضع فيها التعبير الذي يريد وكان
ساخراً أيضاً ولعل مرارة الحياة التي عانى ويلاتها هي السبب في سخريته وميله نحو النكتة
التي طالما غلفت أكثر تعابيره .

وحين عرف رغبتني في المطالعة وحيرتني في اخفاء الكتب عرض علي ألا أشتريها
وأظهر لي استعداده لتزويدي بأي كتاب أرغب . فكنت أستعير منه الكتاب تلو الآخر .
كان انساناً من طراز خاص ، لا يعنيه مظهره في شيء ففي الشتاء حيث الهواء البارد

- بطاقة حفلة ؟
- لا !
- كتاب جديد ؟
- خبر عن زكي .
- لا .. ؟
وازاء الحيرة التي ارتسمت على قسماتي اخرجت من جيبيها قطعة من الشوكولاته
واعطيتها قائلة :-
- خذ .. خرج شوكت من السجن ، وهذه بالمناسبة .
- تهاني الحارة ! متى ؟
- أمس !
ثم صمتت قليلا وتابعت :- انت لاتعرفه ، لكن سيتم ذلك في المستقبل
- على كل حال ارجو ان تهنيئه بالنيابة عني .
- ولكن لما ذا لا تأتي عندنا ؟ تعال سأعرفكما ببعضكما !
- شكراً ! لكن ألم تسمعي خبراً منه عن زكي ؟
- لا لكن ربما تعاد محاكمته في بغداد .. هنا !
وزفرت زفرة خفيفة ثم تابعت :
أترى يجي واحد ويروح آخر
قالت ذلك وهي تبسم ولكنني فهمت جيداً أي الم كان يغلي في نفسها .. ووجدتني
أقول بكل بساطة :-
- وماذا بهم ؟ السجن للرجال !! (قلت ذلك لان السبب الذي سجن من
اجله زكي قد وضع لي) ولكنها اعترضت وكأنها تضايقت من قولي فأجابتي :-
- يعني للرجال فقط ؟
- لا .. لا .. ليس هذا قصدي .. انما اقصد ان الذي يطلب الحق لايهمه

السجن وغيره ولكن ماذا ظننت ؟

- حسبت أنك تقصد ان السجن للرجال فقط بينما الكثيرات من صديقاتي في السجن

- كيف أعني هذا ؟ مستحيل انه مثل يقال

وابتسمت ففهمت انها ادركت قصدي من الأول ولكنها تعمدت الاعتراض وعادت

فسألتني :

- اذن ستأتي لترى اخي

- طبعاً لكنني لا أعرف مكان البيت

- سأدلك الان

ورسمت على غلاف كتاب كان بيدي مخططاً لشارع السعدون وبعض الشوارع

الفرعية ووضعت اشارة حيث يوجد البيت .

أقول انها لم تحبني بعد ان دعيتي لرؤية أخيها ، بعد ان قدمت لي قطعة الحلوى ،

او بعد ان اختصتني بفرحتها أبعد كل ذلك لا يجوز لي ان اصارحها ؟ ان اطلق

قلبي من الأسر ، قلبي الحيس بين جدران الحياء والحجل والخوف ولماذا لا أستطيع

ان أتصور قسماتها بعد ان عرفت اني احبها ايمكن ان تزعل بالعكس انها ليست غير

أوهام أو شكوك .. انها تحبني ومضيت لارى أخيها .. ولاراهها هي .. وكانت الاسئلة

الكثيرة تعصر دماغي وتشتت النشوة التي كنت أحسها . لم اكن أعرف أحداً من أهلها

أبدأ ومع هذا فهذا أنذا ذاهب لارى أخيها الذي لا أعرفه ولا يعرفني ولم يكن ذلك وحده

يقلقني بل ان الخواطر المضطربة كانت ترسم الوانا من المواقف المحرجة ، ماذا لو لم أجدها؟

ماذا سأعمل ؟ وسرت في الشارع المرسوم على غلاف الكتاب وأنا اتطلع الى الابواب

بحيرة وقلق ولم الحظ شيئاً ما يدل على فرح وابتهاج كما توقعت وفجأة سمعتها تناديني

والثفت فاذا بي خلفت البيت ورأيت خطوات وتقدمتي وما كدت أجتاز ممر الحديفة الصغيرة

المحيطة بالبيت حتى اقبل شاب في عنفوان الشباب وعارفتنا مديحة .. أخي شوكت ...

زميلي محمود ورحب بي كأعز صديق ثم قادني الى الغرفة التي كانت تضم اكثر من عشرين

شاباً وقدمني لهم بسرعة وبساطة : اقدم لكم الاخ محمود ..
ومضت دقائق وانا في شبه حلم من الذهول .. وكنت أسمح جيني بين فسترة
وأخرى . رغم الضحكات المرححة والنكات الكثيرة التي كان شوكت يلفظ الجو بها ،
فلم اجد الشجاعة على غير الابتسام فقطط .. ومعنى البعض ولكني لم أبرح مكاني ، كنت
اتاملل في مقعدي مضطرباً حائراً لا أدري كيف سأنجو بنفسي من هذه الورطة ، التي لا
أعلم لماذا ألقيت نفسي فيها .

كان بهجت حاضراً ولحظته صامتاً أكثر الوقت وربما افتعل الابتسامة والضحكة
السمجة المطوطة في حين كان شوكت يتكلم بصوت هاديء رزين .. لقد تركتنا مدبحة
معاً ومضت الى صديقاتها كما قالت ؛ اسلمتني الى ما لم أكن اهلاً لمواجهة من المواقف
الحرجة ولكن هكذا كان .. كان مظهري يوحي بغير حقيقي ولكن عواظفي الحمقاء كانت
تدفعني الى اللهب فتحترق هي ايضاً كالفراشة . قد ينسى الانسان اشياء كثيرة مهمة في حياته
ولكن أينسى مثلي احاديث سجين سياسي ؛ سمعه لأول مرة في حياته يتحدث عن الوظيفة
والحيانة والشعب وال.. وال..

وغادرت البيت بعد ان اوصلي شوكت الى الباب وكان معي شاب آخر وجمعتنا
تلك الصدقة في ذلك اليوم وأفهمني هو ايضاً شيئاً آخر لم اكن اعرفه قال لي ونحن نقطع

الطريق القصير بين البيت والطريق العام :

- تصور شجاعته !! فصلوه من الكلية ومن الوظيفة وهو هو .. لم يتزحزح عن عقيدته أبداً .

كنت أتمنى أن استفسر من شوكت عن زكي اذ سمعت انه حكم عليه بعد محاكمة سرية ... لانني حين سألت مديحة عن مكانه أخبرتني بأنها لا تعرفه الا انني رحمت ابحت عن وسيلة ما للاتصال به ثم بعائلته .

وبالها من ايام تلك التي كنت اتلف الى معرفة أي شيء عن زكي كان الهم يضغط على عواظي بعنف فأروح اسأل وأسأل حتى وجدت يوماً من نصحي أن اقل من اسئلتني عنه لأن مصلحته هو ومصلحتي انا تدعو الى ذلك لكنني لم التفت ولم آبه بل كنت أتمنى ان ادخل السجن لأكون بجانبه وحين سمعت مديحة ذلك مني أجابتي مندهشة وبجدة :-

- محمود انت عاطفي ! ما ذا تقول ؟ ما معنى هذا التمني ... كل منا يجب ان يفكر بتخليصه من السجن بينما انت ؟ هه .. هذا غير صحيح .

ولكن الحوادث مضت على غير ما تمنى كلانا .. نعم رغم امنياتي وامانيها ، لقد تأكدت حينذاك انني أتألم كثيراً لأجل زكي ، كما عرفت سمو الدوافع التي سجن بسببها صديقي القديم العزيز .

٧

لم يكن نشاط الطلاب السياسي ليقبل شأناً من نشاطهم في المجالات الاخرى فقد كانت تقام حفلات موسيقية كثيرة في كليتنا تعزف فيها بعض قطع الموسيقى الكلاسيكية كما كان الطلاب يقومون برحلات كثيرة الى الضواحي او الى خارج العاصمة احياناً الى غير ذلك من الفعاليات التي كانت الفرصة متاحة لها حينذاك ولكنني لم اكن احظر او اشترك معهم الا نادراً .

لقد حضرت مرة احدى الحفلات الموسيقية ولا زلت حتى اليوم كلما سمعت

(تهوفن) أستعيد تلك اللحظات التي كلما مرت بخاطري أحس بمرارة الحنية واليأس
تعقنان فكرة الحب في رأسي .

لم احضر تلك الحفلة الا لأرى مديحة فالواقع انني لم اكن أميل الى هذا النوع من
الموسيقى لا تختلج لها عواظي فهذا ما كان يدفعني الى السخرية من نفسي في اكثر الاحيان
ومع ذلك فما دامت مديحة تحب هذه الموسيقى وتقول انها دليل على الذوق الراقى فلماذا
لا يكون ذوقي كذلك؟ .. وقد كان بهجت يشرف على تنظيم مثل تلك الحفلات هو وزميل له
ايضاً لقد كان هذا الطالب ذكياً فكنت اسمع انه اول صفه دائماً كما كان لبقاً في حديثه ،
مرحاً وظريفاً ، يقف بقامته الفارعة بجانب (الكرامفون) وسيماً ، ايقاً ، يشع من عينيه
بريق الطمأنينة ومظهره يوحي بأنه واثق من نفسه ، كان ينظم بعض الحفلات خارج الكلية
ايضاً ولكني لم احضر واحدة منها أما في الكلية فلم احضر سوى تلك المرة التي مقته بعدها
حتى اكل الندم ذلك المقت بعد حين . وفي الحفلة كنت كغيري من الطلاب انظر واستمع
الى تعليقاته اللطيفة عن القطعة الموسيقية وهو يتكلم بهدوء والابتسامة المتأدبة لا تفارق
وجهه ، ونظراته التي كانت تلتقي بعيوننا جميعاً غير اني كنت ارى وجهه لا ينفك يتحول الى
حيث كانت تجلس مديحة بين دقيقة وأخرى ثم تتسع ابتسامته قليلا ويقل رمش عينيه ..
وحولت اهتمامي الى نظراته والى ابتسامته والى حيث تجلس مديحة ولم اضرب اول الامر
فقد كانت احدى الطالبات جالسة بجانبها وبشيء من البلاهة أحسنت الظن به وقلت في
نفسي لعله يعني تلك التي بجانب مديحة فقد كانت جميلة ايضاً ولا تنفك ترمقه بنظرات
خاصة واخذت الحقه بنظراتي المتفحصة حتى ألقينا بنظرة سريعة خاطفة لم يفهم منها شيئاً
ومرة اخرى ابتسم فأحسست بالقرز منه ، كانت عيناها تسألانه ما لك تنظر اليها هكذا؟
ومرة اخرى ابتسم ثم ضحك ضحكة خفيفة وضحكت مديحة وبهيجة والطالبة الاخرى
وبعض الطلبة القريين منه ولم افهم لماذا ... بل لحظت البعض يلتفتون الى حيث نظر هو
ثم ضحك ، وكان احد الشياطين بجانبني فهمس :-

- خفة دم اكثر من اللازم ، رأيك ؟
و كأنه ضرب على الوتر الذي اريد فأجته :-

- صحيح لأنه ضحك بلا سبب ..

- لا .. السبب ؟ السبب خفة الدم يا أخي !! انظر

وشعرت بشيء من عدم الارتياح لجوابه لأنني أحسست انه يعني مديحة ايضا بملاحظته ، و انتهت الحفلة وأخذ الطلاب يغادرون القاعة وتباطأت متعمداً فاذا بهجت يقترب من مديحة وبكلمها ثم يضحكان معاً .. وأحسست في تلك اللحظة برغبة قوية في أن اشبعه ضرباً ولكمأ . ولكن الصمت كثيراً ما يطوي في مطاويه ضجيج العواطف الثائرة .. وفي تلك اللحظة بدا لي انه عرفها يوم احببتها انا وانه أحبها يوم بدأت أغار عليها وكنت اتخبط لأنها هي لا تعرف اني احبها .. وكنت اشعر بشيء من الراحة كلما تذكرت أن هذا المنافس الذي صار بغضاً الى نفسي لي الصف الرابع وانه سوف يتعد عنها اكثر عند ما يتخرج واتخلص من هذا الكابوس الثقيل الا انني لم اطق صبراً بعد ان علمت بأن حفلة اخرى ستقام وستحضرها مديحة ايضا واخبرتها انني لن احضر فسألني متعجبة :- لماذا ؟ . وقلت في نفسي لماذا لا أقول الحقيقة .. لكن كيف .. وصمت ايضا ولم تعرف هي طبعاً ، وكذبت في بيان سبب اختلقته .

واقبلت بشائر الربيع وأخذ الطلاب يستعدون له ، كل يقترح مشروعاً ، وعلمو اني

من (الكراة) بعد ان اخبرتهم مديحة ذلك فسألني بعضهم :-

- هناك بساتين كثيرة رأيك ؟

- لكن لا اعرف أحد من اصحابها !

- لا تخاف يا أخي .. يعني راح نأكل الاشجار؟ دبر لنا طريقة ، يعني بالعربية « فاوض واحد منهم » ..

وقال آخر :-

- يوم جمعة .. نروح من الصبح نرجع العصر ..

وعقبت مديحة :

- اي والله فكرة حلوة ..

ثم التفتت إلي وتابعت :-

- محمود إسمع الفواكه لم تنضج بعد ولن يمانع اصحاب البساتين كما اعتقد ، اتظن انهم يمانعون ؟

ووعدت الجميع بتدبير المكان وعليهم ان يستعدوا

وفي اليوم الذي اتفقنا عليه كان وهاب صاحبي قد طلب اجازة بعد ان اخبرته بالمسألة ورجوته ان يحضر معي وحضر كذلك طالب ، طالب الذي كان يعني فيصفقون بحرارة ؛ لقد اعطاه احدهم بعض الأبيات (الابودية) فغناها وكانت ابياتاً وطنية حماسية وان صدى ذلك التصفيق لا يزال يتجاوب في اعماقي . وكان فلاح البستان انساناً طيباً الى اقصى حد ، كان يردد دائماً :-

« تعالوا بوكت التفاح .. بوكت المشمش .. على العين والراس »

لقد ترك الرجل عمله ذلك اليوم ومهد لنا مكاناً تحت اشجار النارج حيث وضعت الحقائب واكياس الاطعمة فكان الرجل لا يتفك يعيد : (آني خجلان منكم ما كو بالبستان شيء) ولكنهم كانوا يجيبونه شاكرين ممتنين .. وهم يقولون : « عمي اخلاقك كافية » « وجهك يكفي » الخ ..

كانوا اكثر من خمسين طالبا وبينهم بعض الطالبات ومديحة ايضا وكانت تعلق على كتبها آلة تصوير وكان اكثرهم لا يعلم اني أنا نفسي لم ار هذه الطبيعة قبل اليوم حتى ظن بعضهم اني ابن صاحب البستان لفرط المجاملة التي كان يعاملني بها الرجل الطيب .

واتشروا في ارجاء البستان الكبيرة وبأيديهم آلات التصوير وكانت الضحكات العالية تختلط بأغاريد البلابل وزقزقة العصافير .. وبين حين وآخر يستبد الفرح باحدهم فيرجون طالب ان يعني ثم تنطلق قهقات حرة قوية وتصفيق تندع له الطيور فتصفق باجحتها هي ايضا متقلبة بين اعالي الاشجار ، وما اكثر ما كان يلتقي كل جماعة باخرى فيما هم يتقلون بين الاشجار وعلى حين غرة سمعت مديحة تفاجئني « حاضر ؟ » وهي توجه الكامرا نحوي فاستوقفتها لحظة واذا بطالب آخر يلتقط لنا - انا وهي - صورة . وما أكثر ما ضحكت لتلك الصورة حين رأتها بعد حين وقد ظهرت بها وانا اسوي قميصي بينما هي تنظر نحو الكامرا الموجهة نحوي .

لم يحضر بهجت معهم ولم ادر ما السبب ولم احاول ان أسألها فقد شعرت بارتياح شديد لتغيبه ، كنت لا اريد حضوره ولكن لم يكن لدي وسيلة لذلك كنت اخشى ان يحضر فيعكر علي فرحتي ولكنه لم يأت وهكذا مر النهار وأنا سعيد : كان الضيوف يسالون ويستفسرون كثيرا ولكنني تركت لوهاب مهمة الاجابة على اسئلتهم الكثيرة فلم اكن لأعرف عن جغرافية هذه الأرض الا شيئا نافها بالنسبة لأسئلتهم المتلاحقة ؛ وقد يتبرع وهاب فشرح لهم حتى سبب تسمية هذه الارض بالكرادة وكيف ان هذه الارض كانت تسقى بواسطة (الدلاء) التي تسمى (الكروود) فسميت كذلك وحين قال احدهم انها « جنة يا اخي كيف ستكون بعد شهر .. جنة عدن » اجابه وهاب « اتدري .. لقد عرف الانكليز قبلنا هذا المكان .. واتبهوا له » ، كانوا اربعة او خمسة وبينهم مديحة فسأله حينئذ :-

- « الانكليز ؟ » قال :- اي فعم ! كانت المس بل (BELL) سكرتيرة المندوب السامي في العراق تصطف هنا ولاجلها وجد الطريق الذي جئتم منه بعد ان وسع فصار شارعا ؛ لقد استغلوا من اول الامر حتى طبيعتنا لمنفعتهم فلم يفتحوا شارعا ولا نصبوا جسرا الا عند اقضاء مصالحهم ، كانوا يصطافون فقط ولكن بعد عشرين سنة نصبوا جسرا عائما وفتحوا شارعا هو الذي جئتم منه ورفعوا الجسر باتهاء الحرب وبقي الشارع كما رأيتموه ترقص السيارات فوق الحفر الكثيرة فيه

وعادت مديحة فسألته والى أين يؤدي هذا الشارع ؟ فأجابها الى النهاية ٠٠٠ الى «الدورة» فالنهر يحيط بهذه الارض انها تشبه حذاء الفرس تماماً أو شبه جزيرة، قولوا ما تشاؤون ولكنها كما ترونها ٠٠٠ جنة ٠٠٠ لكنها مهملة ، والتقط بعضهم صورة فيما كان وهاب يتحدث .

وقبل موعد الغذاء جاءنا الرجل الطيب بقدر كبير من اللبن وفيه قطعة كبيرة من الزبدة ٠٠ أي إنسان هذا ؟ لقد كانت كل بساطة الفلاحين وسداجتهم وكرمهم تتمثل فيه لقد سمعنا نتحدث وهو يمر بنا حاملاً على رأسه قدر اللبن متجهاً نحو مكان الاطعمة تحت اشجار النارج وتبعته لاشكره تاركاً وهاب يتحدث فقال لي الرجل : التلاميذ يحبون البساتين الله يحفظهم ، قلت اي والله يا عمي .. نذري بغداد مثل الحبس فأجاني : صدك ٠٠ صدك ٠٠

وبعد أن شكرته قال لي مستكراً :

- زحمة ؟ لا عمي . لا ٠٠ اتوا اولادنا وحقكم علينا وهذا مكانكم .

وفيما هو يعود استوقفه احدهم راجياً ، عمي من فضلك خليني أدخلك صورة .

وابتسم الرجل ابتسامة تضمنت فرحه ورضاه ثم وقف من غير تكلف او تصنع .

واذ حان موعد الغذاء كانوا يتقاطرون من كل الجوانب أربعة أربعة خمسة خمسة

واحد من هنا وآخر من هناك . لقد أعجبتني حرصهم على الموعد ايما اعجاب ، وكان

الغذاء والشاي ٠٠ ثم الغناء والانشيد أيضاً ولكن أي غناء وأية أناشيد ؟

واصر الجميع على ان يسيروا على السدة المحادية وبدوروا -حيث يدور النهر ومضى وهاب يؤشر لهم موضحاً : هناك في الجانب الاخر أترون هناك قصر الزهور ... هذه الدورة . هناك على الجانب الاخر اراضي الشيخ هناك اراضي الشيخ هناك اراضي الشيخ انتم سمعتم به طبعاً فاجاب كثيرون طبعاً طبعاً

كانت فتاة لا أعرفها ولم أراها قبل ذلك اليوم تلازم مديحة من الصباح حتى العصر ولا تفارقها وقد شاركتها في كل صورة التقطت لهما تقريباً . اما بهيجة فقد كانت تصحب الطالبة التي كانت تجاور مديحة في الحفلة الموسيقية . وكانت الفتاة الغربية تبدو حية الى حد كبير لا تضحك بل تبسم فقط وكثيراً ما تهمس في اذن مديحة فتنظر على وجهيها علامات الجد كما رأيت اثنتين من الطلبة يقتربان منها اكثر من مرة فيتكلمون جميعاً بصوت خافت .

وسألني مديحة عن وهاب ماذا يعمل أين يعمل وأجبتها من غير أن افكر بشيء غير الجواب لذاته لا اكثر قلت انه موظف وهو شاعر ايضاً ولكنه ترك الشعر الا انه يقرأ كثيراً وعنده مكتبة ممتازة

وقيل الغروب حين ودعناهم أنا وهاب انحطت مدى الحرارة التي كانت تتدفق من كلماتها وهي تصافح وهاب وتشكره .

وفي اليوم التالي سألتني وهاب عنها فقلت له — أخوها صديق زكي صديقي الذي حدثتك عنه وقد خرج من السجن قبل أيام .

فقال ضاحكاً وهو يضرب يده على صدري

-- لقد لاحظت انها ، كلما اقتربت منك يحمر وجهك ويخضر ويصفر ما القضية

— أنا !؟ . أنت واهم .

ولكنني بحث له بكل شيء بعد ان استرسلنا في الجدل قليلاً وبعد ان عرف انني

أحبها صمت وراحت انامله تعبت بشاربه كعادته ثم قال :—

- اسمع لقد فشلت مرة في حب واحدة أتريد أن انصحك لكن لا. إنها على ما يبدو مثقفة وسوف لن يكون مصير عواطفك كمصيري .

قلت له :-

- أحببت أنت أيضاً .

- ولماذا ؟ عجيبة ؟ ولكن يظهر أن الحب او هذه الكلمة اصبحت من السخف

بحيث تشعرني التفرز كلما سمعتها

- يعنى لانك فشلت كما قلت ؟

- لا لا كتاب الحب في مصر هم السبب في تفرزي من الحب رضى

الله عنه وهم السبب في فشلي أيضاً فقد كانت المرحومة (حييتي) تعجب كثيراً بطريقة

الحب تلك

- وسألته مستغرباً : ما القضية ؟ ماتت ؟

- ما أكثر ماتسأل ولكنى أحب اسئلك لاني اعشق الاجوبة كما تعلم والار

هي مرحومة لانها تزوجت (ثوراً) له اهميته في عالم الثيران وأنا احببتها لاني لم اكن

اريد ان اجعلها بقرة ولا ان اكون ثوراً وضحك ضحكة عالية وهو يقول :- أظن ان

ليس هناك ما يشغل الانسان غير حب امرأة .

٨

لازلت حتى اليوم أستعيد يوم الجمعة ذاك واغوص بنظراتي في التصاوير التي احتفظ

بها حتى كأنها مرآة حقيقته فلكل منا جذوره ، كالشجرة تماماً لا تؤتي ثمارها الا اذا نهيأت

لها اسباب الحياة والانسان او عقل الانسان كذلك . ان شمس المعرفة اذا اشرقت على ظلمات

الفكر فان ايام الانسان تضيء وتبقى كذلك ما دامت الحياة وما دام الانسان .

ولم يكن يوم الجمعة يوم متعة وتسلية ومرح فحسب ربما كان كذلك بالنسبة لي في

حينها، انما الحقيقة غير ذلك والا فلماذا لا ازال اذكره من بين مئات الايام التي طواها
الظلام .

لقد استعدنا ذلك اليوم معا أنا ومديحة استعدادته مع زملائي حين تحدثنا عن رحلة
أخرى في الربيع حين تتفتح الازهار بالوانها الفاتنة وتعطر الهواء برياحينها . ايام الربيع
حيث تغني الطبيعة اغنيها الازلية اغنية الحب والهناء والصفاء اغنية الطمأنينة والامل
والانسان يعيش أكثر أيامه المظلمة وهو يجتر ايام الربيع ويردد اغنيته ، لقد ظللنا نسمعه
وتذكره حتى جاء الربيع وكانت مديحة فرحة كأطياره جميلة كأزاهيره ، كانت تبدو في
الكلية اجمل من زهرة الاقحوان عند الشروق ، اذا ضحكت فبهجة الحمامة الطليقة على
شجرة سامقة واذا تكلمت فعطر الياسمين . ينضح من كلماتها . اني لا ازال احتفظ بتساوير
يوم الجمعة ولكن صورتها تلك ستعيش معي الى الابد . واقلت صباح يوم من ايام الربيع
وذكرتني بالوعد قائلة :-

- محمود نحن في الربيع .

- صحيح وهو جميل .

- والسفر الى البستان ؟ متى ؟

وتذكرت صحيح لقد وعدتها هي والزملاء بأن يأتوا للبستان في الربيع ولكن
الان وفي هذا الوقت كيف سيأتون لقد سمعت عمي امس ليقول « الله الستار » بالشط
اليوم زيادة عجيبة ذراع ونصف دفعة واحدة الله الستار » تذكرت ذلك ايضا بنفس اللحظة
فأجبتها :-

- لو تأجل السفر بعد يومين ثلاثة احسن .

- يومين ثلاثة لا بأس الاحسن الاسبوع القادم ها ؟

- عال جداً اتفقنا .

واتشر الخبر في اليوم التالي ومرة اخرى كان البعض يستعيدون (يوم الجمعة) وفي

العصر حين عدت للبيت رأيت ان مياه النهر تنذر بشر مستطير.... فما اسرع ما ارتفع الماء حتى لم يبق ما يصده من السدة سوى اقل من المتر.... كان النهر يبدو عريضا جداً كما كان في العام الماضي تماماً ولكنه اليوم يجري مرعداً مزبدأ وقد استحال لونه الازرق الصافي الى لون الطين الاحمر وهدوؤه حين كان ينساب عذباً رقرقاً في الصيف انقلب الى هدير مرعب الشد ما شعرت بالخوف يهزني وأنا ادخل البيت وهديره لا يزال يتر في سمعي وبعد العشاء كنت أرقب من النافذة الشاطيء الاخر الذي يبدو مظلماً كالهم ، صامتاً كالأس ، ووحشاً كالثقيرة ، وسمعت عمي يناديني :-

- محمود سمعت نشرة الفيضان ؟

- لا عمي بعد خمس دقائق

- تعال خبرني بعد ما اتبي من الصلاة

- طيب

وسمعت نشرة الفيضان ولم تكن تبشر بخير حتى المذيع كان يتكلم كالحائف او هكذا خيل لي فلم يقل غير كلمات قليلة هزت كل اوتار القلق والخوف في نفسي.... « لاتزال مناسب المياه ترتفع في اعالي النهر.... والدوائر المختصة مهتمة باتخاذ التدابير اللازمة.... وعمال مديرية الري يقومون بتقوية السداد الخ....

واغلقت الراديو حين سمعت لفظاً على السدة وفتحت النافذة فاذا عمال الري يحملون الاكياس الفارغة و (المساحي) .. ورجعت لعمي الذي ناداني فأخبرته بكل شيء وسألته :-

- لكن يا عمي هذي زيادة عجيبة! في ثلاثة ايام يرتفع الماء بهذه السرعة ؟!

- الله كريم يا ابني كل سنة ياخذ الشط حده وينزل.... الله وحده هو الستار .

كنت اريد الذهاب الى وهاب لمقاتحته بمسألة مجيء الطلاب للبيستان وكيفية تديرها وما كدت امضي خطوات في طريقي اليه حتى جائي صبي في التاسعة ارسله وهاب

الى يطلب حضوري عنده لانه مريض واسرعت اليه . كانت حرارته مرتفعة لاصابته بالتهاب اللوزتين الحاد . وفيما كنت جالسا بقربه سمعت طرقاتاً على الباب فابتسم وهاب وقال لي :-
تسمع ؟ هذا ابو زيدان جائي بالنسلين اسمع سيصبح ويدق جرس الدراجة
وسمعناه فجأة يصيح :- بالعجل «أخصموها» ثم شرع يدق جرس الدراجة التي يتنقل
عليها في ازقة المحلة الى بيوت المرضى . وأقبل الرجل وكان قصيراً اسمر البشرة في حوالي
الستين وقد صبغ الشيب رأسه ووضع حقيقته على الكرسي الذي تركته له ثم أخرج ادواته
وبعد ان انتهى من حقن الدواء نظر الي وهاب وضحك قائلاً : اضحك اضحك
بسيطة الصبح اتصير مثل الاسد وابتسم وهاب مجيئاً - اشكرك

ولكن الرجل عاد فقال تشكرني ؟ هه ياريت كل الناس تشكرني أتعب واروح

وأجي واسهر للفجر وتالي صفر حتى من (اشكرك)

فقلت له : لكن الفضل ما يضيع

- تمام عمي تمام لكن اريد اعيش وكلهم مفاليس وكلبي ينكسر عليهم
آني صاحب وجدان الفقير ما عنده أحد غير الله منو عنده وحين اقترب من وهاب
وكنت بجانبه شممت رائحة الخمر من فمه فدهشت كيف يستطيع وهو سكران ان
يؤدي مثل هذا العمل من غير احتمال للخطر وكنمت شعوري حتى انتهى بلحظة وبعد أن
اعاد ادواته في الحقيه التفت الى وهاب وقال « الله يعافيك ولو الحساب بينك وبينه مو تمام
لكن هو رحيم » وودعته الى الباب وفي اليوم التالي سألت وهاب عنه فأخبرني أنه مدمن
على الخمرة منذ أيام شبابه ولا يستطيع ان يواجه الليل الا وقتينة الخمر في جيبه ان اهالي
المحلة يحبونه كثيراً وهو لا يتورع أن (يعفط) بوجه أي كان في القهوة او الشارع
من غير أن يتزعج منه أحد .

وفي الصباح عند ذهابي الى الكلية وكنت في سيارة (الباص) الاهلية الصغيرة
التي كثيراً ما يصطدم رأس الراكب بسقفها وهي تسير في الشارع الوعر وكان الراكب

يتحدثون عن « الشط » الذي اخذ يهدد الناحية كلها فسمعت أحدهم يقول لصاحبه بلهجة فلاحية :-

- صبح زايد نص ذراع الله الساتر
- والله سمعنا البارحة يكولون الحكومة راح تكسر الداودية
واشترك ثالث معهما وكان جالساً في المقعد الخلفي فأجاب :-
- كل سنة هالمساكين طايحين بيها يزرعون ويتعبون وتالي بالشط .
وإذا بأخر يندفع بحماس قائلاً :-

- والله العظيم هالمرة راح ينامون على السدة ويموتون أنفسهم ، هالسنة زرعهم
جاوب والله خطية شنو ذنبهم
واعترض آخر .

- يعني قابل تغرك كل الناس أحسن ؟
فأجابه المتحمس بعصية .

- لا كل سنة يزيد الشط واكسروا الداودية ويزيد الشط واكسروا
الداودية . هذا احسن ها ؟

يعني مواوادم ؟ تعبهم وزرعهم باي دين يروح بالشط ها ؟ وكاد الجدال
يتطور الى معركة فيما كانت السيارة تسير مترافقة فوق ارض الشارع وكان بين الركاب
الذين يزيدون على العشرة رجل مسن ظل صامتاً لم يتدخل الا حين كادت العاقبة تسوء
فقال :-

- على كيفكم يابه على كيفكم الحكومة تعوضهم ميصير تخلي الناس ربي كما
خلقتني .

فأجابه الاخر ساخراً : تمام !!
ووقفت السيارة لينزل منها أحد الطلاب فاذا المصمذ (ابو زيدان) يصعد اليها

ويغمر الجو الذي بدأ يتكهرب (بعفطاته) المتتابعة وتعالق القهقهات والضحك ومرت سيارة تحمل عمال الري فأرسل ابو زيدان عفطة كانت من العنف بحيث تطاير الرذاذ من فمه الى وجوه القريين منه وانا منهم . ثم قال كأنه يودع عمال الري الذين ابتعدت بهم السيارة « كل ما دجلة فاض وزاد إحنه نكوم نسوي سداد » وكنت أسمع تلك الكلمات من الراديو فلا تترك في نفسي شيئاً كما تركته حين القاها ابو زيدان بأسلوبه الخاصر واتبعها بعفطته المعهودة . وقصصت على مديحة كل ذلك ولكنها لم تضحك بل صمتت قليلاً ثم قالت :- صحيح من حقه ... هذا علاج برجوازي .

وكانت تقصد أبا زيدان بكلمة (من حقه) ولكني لم أفهم « برجوازي » هذه وطالعتها مبتسماً في بلاهة صامته فتابعت :-

- الناس يعرفون أنه علاج سخيف يعرفون جيداً انه لا يفيد وظلت الكلمة ترن في اعماقي تاركة تفسيرات باردة ما تلبث أن تموت . لقد مرت هذه الكلمة أمامي في سطور بعض الكتب التي قرأتها هي وغيرها من الكلمات مثل فاشستية مكيفيلية شوفينية وغيرها وكنت أقف قليلاً أمامها ثم اسجلها في ورقة واضعها في جيبى أما ان اعرف معانيها بالضبط . أما ان تستعمل هذه الكلمات بمثل هذه السهولة وكما استعملتها مديحة فهذا ما اشعرني بأني لا ازال صغيراً تافهاً لقد اخفيت عنها جهلي لحقيقة معاني مثل هذه التعابير وما كنت اعرف أن العيب الحقيقي هو أن اجعلها . وحتى وهاب حين كان يتحدث تمر هذه الكلمات على لسانه سريعة من غير أن يسألني مرة هل اعرف معانيها وقد دفعني ذلك الى البحث عنها بنفسى .

ورغم ان موعد الامتحان كان قريباً فلم استطع المذاكرة بعد أن رأيت عصر يوم مياه النهر تطفح على سطح السدة كلما هبت نسمة خفيفة وكان أبناء المحلة يعملون مع عمال الري . يحضرون التراب على دوابهم وبعضهم يملأ الاكياس الصغيرة ليضعها الاخرون فوق حزم الحطب وكان ذلك عملهم الوحيد لصد هذا المارد الجبار . وخرجت

لارى ما يجري فوقفت مسنداً ظهري الى الباب ، كان النهر يبدو عريضاً كالبحر وقلت في نفسي أياكون الدمار مvir هذه الارض الجميلة الطيبة ، والبساتين والمزارع ، ثم الناس اين يذهبون وكل بيوتهم من الطين فالقصور هنا قليلة وكيف ستسع كل الناس وهم حوالي العشرة الآف . كان الخوف يرسم لي اشباح التشاؤم المرعبة ! الى اين يذهبون والماء يطوقهم من ثلاث جهات وبغداد بعيدة جداً وماذا سيفعلون في بغداد الصاخبة الالهبة التي تركتها عصر اليوم غير آبهة بهذه القلوب الواجفة والوجوه الشاحبة.

.....

كانت بعض النسوة جالسات على السدة بكآبة ينظرن الامواج المتلاطمة ويتضرعن الى الله بأدعية كثيرة . وكانت عوامات الجسر الذي رفعه الانكليز بأنتهاء الحرب تبت الفرع في القلوب بذلك الهدير المزعج الذي يتسبب من ضغط الماء المندفع بجنون. وانطلق من الجامع القريب صوت المؤذن لصلاة الغروب وكان البعض ينفض يديه من التراب ثم يذهب للصلاة وسمعت رجلاً عجوزاً يقول لآخر :-

- والله يا حجاج الشط يخوف اليوم !!
- الله كريم يستر علينا بستره الجميل وين تروح العالم ؟
- الله كريم المكتوب مامنه مهرروب يرحمنا برحمته الواسعة سبحان الله ، بين سنة وسنة . . قادر الله

ومررت بأثنين آخرين وسمعت أحدهما يقول لصاحبه :
عباس الامر بيد الله لكن اكلو ليش بسنة الي الزرع عندي يجاوب يزيد الشط ويتخل .
فنهراه صاحبه قائلاً :-
- لا تكفر . . لا تكفر . . قابل انت وحدك ؟ لو الله يريد يضرك ؟ حاشا .

- لا ... لا ... صدك كل سنة « طحينج ناعم على هالرنه »

- يعني شفكرك ؟ .. مستغفر ربك يامذهبي لا تكفرونا خلي نشغل

وعدت للبيت لاستمع لنشرة الفيضان من الراديو . وكان عمي يحاول أن يخفي عني قلقه بصمته المطبق وهو ينتنح بين فترة وأخرى . كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل والاراق لا ينفك يلقيني من فكرة الى فكرة وانا اصغي للحراس وافراد الشرطة الذين يروحون ويجيئون على السدة وكانت تنتهي الى سمعي صيحات من بعيد لا تلبث أن تموت في ظلام الليل المضطرب من هدير عوامات الجسر وفجأة سمعت طلقاً نارياً حسبته من فعل النواظير في البساتين ولكن مالبث أن تبعته طلقات أخرى متعددة متوالية كأن معركة قد نشبت فأرتجف قلبي هلعاً واشعلت المصباح فإذا عمي يناديني :-

- محمود وين رايح

- اريد اشوف

ولكن زوجته شرعت تبكي وتتوسل الي... لا تطلع ياأبني لا تروح عيني. الا اني رغم الحاحهم ارتديت ملابسني وكان صراخ النساء قد بدأ يتعالى من هنا وهناك . كنت أريد أن اذهب الى الشارع كي استجلي الامر الا أن عمي الح قائلاً :-

- ابق هنا لا تطلع أنا رايح وارجع بعد شويه

ومرت دقائق واذا عويل النساء يطغى على هدير العوامات ويرتفع ضجيج السيارات في الشارع القريب وأخذ الناس يتراكضون وهم يصيحون « كسرة... كسرة... كسرة... كسرة... » كنت أريد أن اعرف من اية جهة حدثت هذه الكسرة وكل من أسأله حين يمر بي يجيبني « والله ما ادري بعد » واقبل عمي يبسمل ويحوقل ويتعوذ من الشيطان ويفرك كفيه ببعضهما وقبل أن أسأله قال :-

- انكسرت السدة من ظهر البساتين لكن بسيطة الله كريم الناس ركضت

لها

- واذا توسعت يا عمي

- لا لا سامح الله الله ما يخلي حمل مطروح بسيطة مسألة بسيطة

و «ظهر البساتين» هو جانب النهر الذي رأيته مع الطلاب يوم السفارة ورأيت قوة انحدار الماء بعد أن ينفلت من انحناءة (الدورة) وحين كنا نمشي على السدة بدت لنا ارض البساتين منخفضة جداً وتملك الهلع قلبي وأنا اتصور الماء ينحدر نحو البيوت بعد أن يجتاز البساتين بسرعة ولحظ عمي أنني ارتجف فحاول أن يهديء من روعي ولكن طرقاتاً على الباب اشتد كان الناس يحملون اطفالهم وما خف من حاجياتهم وهم يهرعون الى القصور المحاذية للسدة حيث بيت عمي ينتصب بينها بعناد بينائه القديم . وكان عويل النساء وبكاء الاطفال والاف الاستغاثات والنداءات تترجج كلها فتترك الانسان في دوامة عنيفة من القلق والحيرة ومع ذلك فقد أخذت أنا وعمي وزوجته نغلق أثاث البيت بعضه فوق بعض لتسع الحجر القليلة للافواج التي تتراكم مدعورة نحونا .

ولازلت اذكر تلك الدموع الصيبة التي كانت تذرف على المزارع والبساتين التي ستلف اثمارها والبيوت التي ستهدم . وفي تلك الساعات القلائل ادركت أشياء لم تكن قد مرت علي حين سمعت امرأة تقول لزوجها :-

- ابو محمد ليش عفت الطحين

- اسكتي يا بومة ارواحنا وارواح الناس أوجب

و حين دخلت في تلك الساعة امرأة عجوز يحملها رجل ضخم على كتفيه . وأمامه صبي فوق رأسه قفص بداخله دجاجات . كانت تدعو له بطول العمر والتوفيق وهو يجيها ضاحكاً اذا باقي شيء أروح أجيبه ؟ فأجابته « لا لا يا بني لا ما عندي شيء الله يوفقك الله يحفظك » وانزلها من على ظهره ثم قال لي « من فضلك أفندي ساعدها ما عندها أحد » وخرج مسرعاً لينقذ غيرها . كانت العجوز تردد وهي تنوح « مانم اللي غير البيت يا جبار يا بني . » « والبيت راح يروح يا جبار يا بني » وفهمت فيما بعد أنها فقدت

ولديها جبار ومحسن بعد أن صرعهما السل وهما في زهرة العمر وفقدت زوجها الذي مات حزناً على ولديه ولم يبق لها من وسيلة للعيش غير هذه الدجاجات التي حرص ذلك الشهم على احضارها معها. أنسى ذلك؟ كيف أنساه؟ وكيف أنسى ذلك الصباح حين اشرقت الشمس على مئات الناس والحيوانات كمشردين أجلتهم عن وطنهم حرب ضروس وهم متكسبون على السدة وقد جعلوا من ملابسهم ستائر كيوت الشعر ليتستروا بها. وكيف أنسى العمل الذي قاموا به مع الشروق حين جعلوا من الشارع الضيق الذي يشق القرية الى نصفين خط الدفاع الاول والاخير بينهم وبين الماء الذي كان يكتسح بغير أكتراث كل ما يعترضه ليلتقي بصاحبه من الجهة الاخرى وكأنهما جيشان منتصران بيتيان احتلال مدينة اما الفلاحون والعمال واخوتهم واولادهم فقد ثبتوا الجيوش الزاحفة !! وكان الصراع مستمراً حتى الغروب والماء يتجمع ليفتح ثغرة في السد الصغير الذي اقاموه على الرصيف ليحولوا بينه وبين النهاية المحتممة الموت .

وفي تلك الليلة اعلنت العصيان على عمي مرغماً وذهبت لاحمل التراب مع وهاب وجماعته. كان العمل مقسماً بطريقة حتمتها ظروف المعركة فكان سكان كل زقاق يهدمون بعضها من بيوتهم لتقوية السد على الرصيف، الرجال والنساء العذارى والامهات، والصبيان وحتى الاطفال والزغاريد ترتفع في الفضاء مشجعة على المقاومة. وكانت البيوت تتهاوى في الجانب الاخر من الشارع ومن بين البساتين تاركة دويماً هائلاً ويرتفع عويل من هنا وهناك ثم تعقبه زغاريد كأنها تصر على سلامة ما تبقى من البيوت التي اكتظت بكل ما يملكه اهل القرية .

واشرقت الشمس في اليوم التالي والشارع يبدو من بين اشجار الكالبتوس على جانبيه كجدول لطيف وكان لا بد ان يكون السد الصغير الذي أقيم على الرصيف بمستوى السدة الكبيرة في الارتفاع وقد تم لهم ذلك فاتصروا . وكانت الخطوط التلقونية والتيار الكهر بائي قد انقطعت ولم يبق من طريق غير السدة التي أمام بيت عمي ورغم ذلك فقد

تواردت الانباء بأن الحكومة كسرت سدة الداودية وسينخفض مستوى الماء. لقد سمعت بذلك وأنا اتناول فطوري مع وهاب وجماعته ، كانت النساء تحمل الى العاملين اقتداح الشاي والحليب والحبز أيضاً مع الاف الادعية.

انقطعت عن الكلية اسبوعاً كاملاً . وحين أخذ (العدو) يتراجع أخذ الناس يفكرون من جديد في أشياء كثيرة . كانت تدور على الستهم كلمات ففي اليوم الرابع عندما أعيد التيار الكهربائي اذاع الراديو بياناً بأن المياه ستستمر بالانخفاض وكان قريباً منه رجل يغمر الحزن ووجهه فقال متهكماً ، يخاطب نفسه :-

- رهنت الحوش على خمسين دينار بالفايز وزرعت وراح الزرع والبيت وحاولت أن أهون عليه فأذا به ينفجر ونظراته الحادة مصوبة نحو الراديو وكأنه يخاصم انساناً أمامه قائلاً :-

« هجمتو بيوتنا الله يهجم بيوتكم . » ثم التفت الي قائلاً : قابل راح يشنقون المهندس؟ حرام !! كل شي ما يصير عليه ! أواعدك وهسه اشوف وكنا قد سمعنا في تلك الايام أن سبب انكسار السدة هو أن احد مهندسي الري اهمل انبوب احدى المضخات فتسرب الماء الطاغي من الفراغ الذي تركه الانبوب بعد ان أمر المهندس برفعه فكان أن هجم المارد الاسطوري على القرية .

٩

وذهبت للكلية وكانت الصحف ما تنفك تكتب عن الفيضان الذي أخذ يهدد بغداد بعد ان غرقت (الكرادة) وكنت ابحث في الصفحات عن شيء مما جرى امام سمعي وبصري فلم أجد غير الكلام عن التعويضات وشرحت لمديحة ولبعض الطلاب كل شيء وكان النقاش يحتدم حول مسألة المهندس الذي قيل انه هرب الى باريس كما اشيع في حينه ذهبت الى الكلية بعد أن خلفت ورائي وجوها صبغها الحزن بعجوس دائم وعيوناً

باكية تلاحق حطام البيوت العائمة فوق المياه التي بدأت تخضر كمياء المستنقعات واولئك
الناس الذين كانوا يأنفون حتى مما كانت السلطات تقدمه لهم من طعام . كانت بغداد كما
عهدتها او كما كنت اراها وكأنني كنت أرجو أن ارى واسمع في بغداد كل ما يحتوي في
معناه على الاكثراث ولكن لا لقد كانت لا مبالاة صفيقة تطالعني في كل خطوة خطوتها
الى الكلية . وكان رماد الخيبة يتراكم شيئاً فشيئاً على حزني . الا انني بعد أن قرأت افتتاحية
الجريدة التي اعتدت قراءتها عن الفيضان ، أفقت وكأنني كنت راقداً كانت الحرارة
المنبعثة من السطور أشد وأقوى من الحماس والالم الذي حفرت له تلك الحادثة اخايد في
عواظي وفي تفكيري . لقد كنت اجعل اشياء كثيرة ، أذن ، فبغداد لم تكن في الحقيقة كما
توهمت اول الامر !

وكنت مرة أصف لبعض الطلبة وكانت مديحة بينهم ، بعض المواقف المشرفة التي
وقفها الناس هناك واذا بهجت يقبل نحونا ويدعوها فاستدارت اليه ثم ذهبت بخطوات رشيقة
هادئة نحوه ، ولم استطع اتمام كلامي الا بعد أن كاد يفضحني الاضطراب الذي أخذت
كلماتي تتعثر به وحاولت أن افلت منهم الا أن احدهم قال مبتسماً بعد أن التفت
قليلاً وراءه :-

- تبين مسألة الجماعة راح تنتهي .

قال ذلك وهو يشير بأبهامه الى حيث مضت مديحة وبهجت . وسألته وكان الأمر

لا يعنيني أبداً .

- أسمعت شيء .

فأجاب ضاحكاً :-

- ظل واحد ما سمع ، الجماعة على وشك الخطوبة .

وعقب آخر :-

- كل خطوباتهم تصير بالعطل ويحرمونا من

فقاطعه ثالث بمرح

- والله العظيم لازم ناكل حلويات على حساب واحد يا هي يا هو

وغادرت الكلية ظهر ذلك اليوم وأنا اسأل نفسي ببلاهة ، متى تعرفت به ؟ اني لم
أرهما في الكلية معاً الا نادراً وفي اكثر الاحيان كانت معي قريبة مني تكلمني
ضاحكة مرحة الهذه الدرجة أحبته ألم تعرف اني أحبها أتكون خدعتني بهذه
الطريقة اللثيمة أنقتلني بهذا الاسلوب الصامت هكذا من غير أن يعرف أحد ؟
وفي المساء كنت أقرع نفسي والومها لماذا لم أفض لها شعوري لماذا لم أبح لها بحبي
ربما لم تكن تعرف عن احساسي شيئاً ولكن عدت مرة أخرى والالم يغلي في روحي
ورغبات خبيثة تتصارع في فكري المشوش حتى تمنيت ان اخنقها ... او أقتل ذلك الطالب
الذي لم اتصور يوماً أني سأقضي الليل وانا اتفنن في التفكير بأساليب حرمانه من الحياة .
ومع انفجر اذ تناهى الى مسمعي صوت المؤذن تركت فراشي ومضيت الى المكتبة كنت
أريد ان أريح أعصابي قليلاً أن لا أفكر أن ابعد عني تلك الاشباح السود التي
ظلت ترسم في الظلام أمام بصيرتي وامسكت القلم لاكتب لها شيئاً وسودت أكثر من
مست صفحات ثم مزقتها وعدت اكتب من جديد وسمعت عمي يناديني وهو يقول :-

- محمود بابا سهران ليش ؟

- قبل شويه انتبهت والامتحان قريب واريد ادرس .

- لكن السهر يضربصحتك ابني .

ولم اذهب الى الكلية بل رحمت ادور في الشوارع المزدهمة وحين وقفت على
الجسر رحمت أنظر الى المياه الحمراء والزبد المتدفع مع الامواج بسرعة ولم أفكر تلك
اللحظة أن اتحرر أبداً بل كنت اقول يجب ان اسلمها الرسالة اولاً ان حب الحياة

لا يموت في الانسان رغم الموت وحتى الجبناء الذين ينهزمون أمام اتفه المشاكل يحاولون الارتقاء في احضان الموت ، حتى هؤلاء سرعان ما يعودون ليقاوموا بالرغم منهم ان الحياة غالية مقدسة وعلام يتخلص الانسان منها .. أعبء ثقيل هي ؟ لكم يكون الجسد تافهاً بعد الموت لقد رأيت جثثاً كثيرة في المستشفى وفي قاعة التشريح في كلية الطب وكاد يغمى علي في المرات الاولى اذ رأيتها ولكن العادة قتلت في اعماقي كل شعور بالخوف من رؤية انسان ميت ، إنما الاحساس بأهمية الحياة لا يزال يشدني الى هذه الارض التي صرت ادرك معنى قدسية حياتي عليها .

كنت أسير في طريقي الى الكلية بعد أن تركت ورائي الجسر والامواج المتلاطمة والزبد الطافي المندفع معها بعنف

كنت أسير واستعيد في خاطري السطور التي كتبتها لمديحة كنت مصمماً على أن أن اعطيها الرسالة بيدي ولم أحسب أي حساب لما عسى أن تسألني . وصلت الكلية قبيل ثالث محاضرة وما كدت أدخل النادي واجلس متعباً لا يوحى مظهري بغير المهم واليأس حتى اقبلت مسرعة نحوي وابتدرتني من غير أن تلاحظ شيئاً ما في وجهي

- محمود انت هنا عظيم

ولم أجبها بل ابتسمت فقط لكنها عادت فقالت بنفس المرح ونفس الابتسامة :-

- أسمع لازم تجي للسينما اليوم تجي ؟ لازم تأخذ بطاقة

- أي سينما

اللجنة الفنية رتبت حفلة سينمائية والقلم ممتاز لشارلي شابلن تجي طبعاًها؟

- طبعاً طبعاً والبطاقات ؟

- بهجت يبيعها خذلك واحدة منه

- بهجت أي بهجت

وضحكك وهي تقول مندهشة :-

- بهجت ؟ أما تعرفه على كل حال راح أجيب لك واحدة خذ كتابي عندك
لحظة واحدة .

وتركت كتابها معي ومضت لتأتي لي بالبطاقة وأسرعت فدمست رسالتي بين طياته
وما كدت أتناول البطاقة منها واعطيها الكتاب حتى تمنيت لو ان لي قهوة خارقة
فأختفي او أقفز من مكاني عبر بناية الكلية حيث استطع أن اختفي في زحام المدينة
وأخرجت ثمن البطاقة من جيبها فإذا بها تقول مستكبرة :-

- لا لا هذه المرة على حسابي .

واجبتها مستغرياً بلهجة بلهاء

- شكراً

- يعني ترفض ؟ أقول لك على حسابي

ودق الجرس وشرع الطلاب يتجهون نحو قاعات الدرس . كنت أستعجل الدقائق
لا تتمد عنها وخشية أن تحس بوجود الرسالة في حضوري ولكنها مضت بعد أن شكرتها
بسرعة ويدها ممسكة بالكتاب بحرص ، او هكذا خيل الي . كنت أخشى أن يفلت الكتاب
من يدها او تنزلق الرسالة على الارض !!

لم اكن أرى وهاب كثيراً في تلك الايام وكنت استغرب منه التهرب من الجواب
كلما سألته عن سبب تغيبه يومين او ثلاثة من غير أن اراه لا في القهوة ولا في البيت
وفي عصر ذلك اليوم لم أراه أيضاً فأضطررت أن اذهب وحدي للسـينـما وعندما
وصلت كانت صالة السينما مكتظة بعشرات الشباب كان اكثرهم من طلاب كليتنا وكانت
وجوه العـضـ الأخر غريبة علي كانوا واقفين على رصيف الشارع أمام ابواب السينما وفي

الممر المؤدي الى صالة العرض ، والتقيت بواحد من طلاب صفي فصعدنا سوياً الى الطابق الثاني حيث كانت تجلس مديحة وبجوارها بهجت ذلك الشاب الذي كدت أجن ليله امس وأنا اعمل ذهني بحثاً عن وسيلة لقتله ، وما كدت أراه حتى عاد الدم يغلي في عروقي وشحنات من الألم والشقاء تكاد تنفجر في قلبي وعلى لساني واقتربنا أنا وصاحبي من صف المقاعد حيث يجلسان وكان المقعد الذي على يسارها خالياً وحييتها وكدت الحق صاحبي الذي سبقني عجلاً الى بعض المقاعد الجانبية الخالية ولكنها أشرت الى المقعد وهي تقول اتفضل اقعد وجلست من غير أن افكر لماذا وكيف ؟ وكأنني نسيت الرسالة ونسيت هذا اللص الذي بجانبها، اللص الذي سرقها مني فسرق ههنا تي وراحتي الى الابد كما كنت اعتقد ، ومضت لحظات حرجة لانني لم ادر ماذا أقول ولم التفت نحوها بتاتاً ، لحظات من تلك التي تطوي في جزئياتها هموم الليالي وافراح الايام والتفت فجأة اذ سمعتها تقول له :-

- بهجت انت ما تعرف محمود ؟ أعارفكم

ومد الى يده مضافاً فيما تقول هي :

- الاخ محمود

- الزميل بهجت

وبنظرة سريعة اختطفت من وجهه كل المعاني التي ارتسمت على قسماته وهو يقول:

أهلاً وسهلاً

وهمست في سمعي :-

- محمود أنا قرأت الرسالة ولازم تتناقش بالموضوع

وابتاعت ريقى وأجبتها

حاضر

- ولكن يظهر انك عصبي كثير

- أنا؟ لا ابدأ لكن
- على كل حال لازم تتناقش في الموضوع لكن العصبية غير صحيحة .
- أعتقد ان الرقابة حذفت من الفلم كثيراً
- طبعي ما دامت القصة ممتازة ماذا تتوقع ، لابد من الحذف ..
ولكن العصبية التي نهتني عن الارتقاء في أتونها عادت فألهبت أعصابي فشعرت
بدوار وغادرت السينما بعد ان اعتذرت بأني سوف أعود ولكن مضيت مضيت
الى البيت .

أيمكن أن يتصور أحد أنها ستواجهني بتلك البرودة وقلة الاكثراث؟ أنا الذي
أعدت كتابة تلك السطور اكثر من عشر مرات حتى العنوان « زميلتي المحترمة » وحذفته
ثم « عزيزتي مديحة » وحذفته حتى استقر قلبي على النغم الهاديء الذي تعزفه تلك المفظة
الحلوة « حبيبي الغالية » لقد خاطبتها « حبيبي الغالية » هكذا ... وماذا بعد؟ وقلت لها اني
احببتك منذ اليوم الذي رأيت فيه وجهك المدور المضيء ، منذ اليوم الذي اضاءت ابتسامتك
ظلمات نفسي ، منذ اليوم الذي عرفتك فيه واصبح لي في الحياة أمل ..

نعم لقد كتبت لها ذلك وكتبت ايضاً ان الحياة لا قيمة لها في نظري اذا فقدتلك بل
لا اتصور أنني سأستطيع الاستمرار في الكلية . لقد سمعت من الطلاب شيئاً عنك وعن
بهجت حين دعاك صباح اليوم فيما كنت معنا فما علاقتك به؟ هل صحيح؟ أتتخلي عن
قلبي الى الابد؟ ربما ستزعجين كثيراً لهذه الكلمات لانك لا توقعينها مني ولكن ماذا
اعمل؟ ان هذه الرسالة هي الطريقة الوحيدة لاتخلص من الخجل الذي يسيطر على لساني
كلما اردت مصارحتك على كل حال انا اتمنى لك السعادة اذا كان صحيحاً ما سمعت
ولكنني لم اتوقع نهاية لحبي مثل هذه « ولم يكن قد بقي للامتحان سوى اسبوعين او اكثر
قليلاً ولكن لم يعد الامتحان يشغلني بقدر ما كنت افكر في الملاحظة التي ابدتها ذلك
الطالب حين قال « كل خطوباتهم تصير بالعطلة » ولم اذهب للكلية ثلاثة أيام متوالية وكلما

سألني عمي او زوجته اعتذرلهم بأن الدروس صعبة وأنا كباقي الطلاب تنقطع للمذاكرة....
ولكن كذبي كان واضحاً.... فقد بدأت صحي تدهور .

كنت جالساً في غرفتي حزيناً معذباً حين طرق الباب في العاشرة مساء طرقات خفيفة
ونهمت فأذا أنا برجل يرتدي العباءة والعقال ويحييني بأسمي :-

- مساء الخير محمود

- أهلاً وسهلاً

لقد عرفت صوت زكي وقف الشعر في جسدي وكدت اشق دهشة لولا أن تابع

بسرعة :-

- عرفتي ؟

- اي عرفتك تفضل

كنت اتطلع في وجهه لاتين زكي صديقي السجين فأذا بي أمام رجل يبدو في الستين
في وجهه غضون تؤكد عليها لحيته الطويلة وشاربه الكثيف وجسمه الذي يبدو مترهلاً مكرشاً
وضحك وهو يقول سأبقى يومين هنا واذهب وعليك تدبير المسألة ماذا ستقول لعمك ؟
فأجبت وأنا لا ازال نهب المفاجآت والدهشة :- لكن ماذا حدث؟ وأجابني بهدوء «يعني
لازم الواحد يظل محبوس بالقفص حتى اذا كان بإمكانه أن يكسر القفص ؟ لا....»

كنا نتكلم بصوت خفيض وكانت انفاسي تتلاحق ودهشتي تزداد وهو يخرج اكوام
الملابس التي لفها حول جسده ليبدو سميناً وبعد أن نزع المحية المستعارة التي كان يبدو بها
وكانه شيخ متدين غيور .

وسمعت عمي يناديني

- محمود من دق الباب .

قلت متلعثماً :-

- جاءنا ضيف من الديوانية

وهمس زكي مضطرباً أجننت؟ وأخفي الملابس المزيفة تحت (القنفة) وبقي كما
رآه عمي حين دعوته مرة ففضى ليلتين عندنا ورحب به عمي اي ترحيب كنت ارتعش
بينما زكى لم يبد عليه انه هارب من سجن ابدأ كان يتكلم بهدوء ورباطة جاش ويرد على
ترحيب عمي شاكراً .

وفي الصباح بعد ان ذهب عمي الى عمله لم اجد بدا من مكاشفة امراته بالحقيقة
والا فماذا يحدث لزكى لو غادر البيت في النهار وراحت المسكينة تلمم وجهها وتبكي
هامسة لكي لا يسمع (الضيف) وهي تقول :- اذا عرفت الحكومة شتعمل؟ شنسوي؟
وامام الحاحي ورجائي وتوسلي اضطرت الى السكوت بعد أن أقنعتها أنها تستطيع الذهاب
لزبارة الكاظمين ولما اعترضت بأن عمي لا يعلم وعدتها أن اذهب لاعلامه .

ومضيت الى الكلية وقد تبخرت من رأسي كل الافكار السخيفة التي كانت تغمره ،
مضيت وكأني أريد أن أخبر مديحة لكن زكي اوصاني أن لا يعلم أحد عدا امرأة عمي
وعمي نفسه اذا كان لابد اوصاني وهو يقول « سابقى هنا بعد يومين أسافر
يومين »

ولم تعرف مديحة بالطبع ما يعتمل في نفسي وما يشغل فكري حين بادرتني :-

- تناقش بالموضوع وإلا لا؟

- اعتقد لو في وقت آخر يمكن أحسن

لا لا أنت اعترفت بالرسالة أنك تستحي واسمح لي أن كلمك بهراحة :-

- العفو أنا ما اردت ازعاجك

- أزعاجي؟ ومن ادراك أنني منزعجة بالعكس أنا فرحانة؟ لانك شاب طيب

وشريف والحقيقة اني كنت احس منك شعوراً نبيلاً

لقد كانت قضية زكي تشغل فكري كله وقلت لها مباشرة :-

- الواقع أنني ما كنت أعرف أنك تحبين بهجت ومهما يكن فأتمنى لكما السعادة
- أنت تبدو عصياً مرة أخرى
- لا صدقيني اني لست كذلك انما هناك ما يشغل الانسان غير الحب .
- ماذا تقصد

- أقصد أنني افضيت لك بحقيقة شعوري في الرسالة امس الا انني بعد أن فكرت
كثيراً ندمت ولكنني سوف لن انسى انك كنت اول مصباح أضاء لي طريق الحياة
- محمود نحن مثقفون والصراحة دليل على ثقافتنا اقول لك انني لن اغير موقفني منك
- وماذا كان موقفك مني ؟

- انك شاب ممتاز وطيب واذكر ما قاله لي زكي عنك
- زكي قال لك شيئاً عني ؟

- نعم زكي انني لازلت احترمك كأخي ليس لان زكي اوصاني بك بل
لانك صرت انساناً طيباً تقدر الامور جيداً
- العفو اسمحي لي لم أفهم ما تعنين

- أقصد انك تقدر موقفني في قضية علاقتي مع بهجت لانك تستطيع أن تفسر
الامور جيداً بنفسك . - أعتز برسالتك واحفظها عندي ولكن على شرط ان يبقى أخوين .
- طبعاً طبعاً لكن ماذا قال زكي عني

- أعود مرة أخرى للحديث .
- لا العفو لا أقصد شيئاً

- ولم استطع البقاء في الكلية كنت افكر فيها طيلة الوقت حتى عدت للبيت فوجدت
زكي يقرأ . غير مكترث لما قد يحدث له فيما لو طرق الباب شرطي ولقد طرقت الباب
حسب الاشارة المتفق عليها بيننا لقد عدت قبل الظهر وكان وحده في البيت وكان ذلك اليوم
الاول في حياتي الذي تغديتنا أنا وزكي بعد أن طهينا الطعام بأنفسنا وكان قد تعلم: الطهي

كما قال في السجن كان يتكلم باقتضاب عن السجن ومن فيه وما فيه ولم يشر الى قصيته . الى اين سيذهب وكيف ؟ كأنه لا يريد أن أعرف . وسألني بعد الغذاء :-

- لو طرقت الباب الآن ماذا ؟

- لا افتح حتى تختفي أنت

- واين ترى أخفي

وضحكنا لانني لم اكن اعلم حقاً اين يمكن أن يذهب وأنا لا اعرف أحداً من

الجيران . وعاد فسألني :-

- ولو سألوك عني ؟

- انظني جباناً الى هذا الحد فأخبرهم

وهتف وهو يربت على كتفي «ممتاز ممتاز ما خاب ظني فيك» إلا ان قلبي رغم

ذلك كان يخفق كلما طرقت الباب . لا سيما حين اقبلت امرأة عمي من زيارتها المباركة

عصراً وحين جاء عمي أيضاً ورغم أنني اغلقت الباب من الداخل بعد العشاء الا ان

الخوف كان ينهش طمأنيتي وانا اتصور ان الشرطة ستدخل بصورة ما وتأخذ زكي وتقودني

أنا وعمي الى السجن كنت نهب الوسوس والاهوام والحيرة والخوف . وفي الليل قال

زكي وكأنه مل الحديث عن نفسه :-

- واين وصلت انت ومديحة

- ستزوج من طالب في الصف الرابع أسمه بهجت

- صحيح ؟

- نعم

ثم تابعت ببرودة وسخرية :

ويجبها وتجه ويجب

- محمود أظن أنني حذرتك ، اتذكر ؟

- الحقيقة كنت أجهل عواطفني انها التجربة كما قلت لي حينذاك ولكن

رغم كل ذلك فأنا لا ازال أحبها لانها شريفة يا زكي فتاة طيبة جداً .

- أتقول لي هذا ؟

- لكن زكي أرجوك بماذا أوصيتها لقد أخبرتني هي .

وصمت قليلاً واذا الباب تطرق بعنف وجمدت في فراشي لا أستطيع حراكاً ولكن زكي همس في أذني سأصعد الى السطح لانظر من هناك ومن غير أن تسمع لنا حركة أو نشعل ضوءاً وكأنا لا نزال رقوداً : صعد زكي ثم نزل وأخبرني أن شخصاً يقف أمام الباب عند ذاك استطعت ان أمد يدي الى الزر الكهربائي وأشعل المصباح ثم لاقول من ؟ - محمود انا جاسم .

وما كدت أفتح الباب حتى دخل خطوتين الى الداخل وسد الباب بيده وهو يقول:

- اسمع

- ماذا ؟ قل

أخذوا وهاب قبل شوية ويمكن تتحرى الشرطة بيتكم احذر اذا عندك كتب اذا عندك اي شيء آخر .

- طيب أشكرك .

ورجع جاسم من حيث أتى وسألني زكي عنه فأخبرته وأوضحته له المسألة . ولكنه

قال مطمئناً :

على كل حال يجب أن أبقى هنا الى الفجر على الاقل وسيأتي مركب بخاري وبأخذني من هنا ما رأيك ؟

- سألني وكأنه يمتحن شجاعتي وجرأتني اذ لحظ ارتعاشي ولكن سؤاله كان محيراً

فبماذا أجيبه ؟ أقول له فرحاً راضياً « ممتاز ممتاز » ام « لماذا تذهب ؟

ابق هنا وليكن ما يكون » لقد كان صديقي يوم كنت أمشي على ارض ماغمة ولا ادري لسذجتي كيف أسير والآن هاهو يتعرض للاخطار وأنا بأستطاعتي عمل شيء ما اي

شيء ولكن ماذا أقول له ؟ وصمت كلانا لحظات كئيبية من غير ان أجيب فتابع هو قائلاً :
- التحري ليلاً لا يكون الا في الاحوال الخاصة أتدري ؟ وما دمت أنا في هذا
البيت فلتتوقع ذلك كل لحظة ،

- سأرتدي ملابسى ربما يأتى المركب فجراً وابتسمت قائلاً :

- أنظن أنى خائف ولا أريدك ان تبقى هنا ؟

فضحك ضحكة خافتة وأجابني :-

- لا ليست هذه هي المسألة لكن حين يكون البيت يتك أنت عندئذ

يمكن أن أبقى ثم ان عمك لا يعلم شيئاً . كم الساعة الان ؟

- لكن اذا لم يأت المركب ماذا ستفعل ؟

- سأخبرك في الوقت المناسب المهم ان تنام أنت .

- وأنت ؟

- في ظروف مثل هذه يجب ان لا ينام الانسان .

- وكان الليل موحشاً كنا نصغى لصوت احدى المضخات الكبيرة التي تسقى

المزارع على الشاطئ الاخر كان صوتها المتقطع يتناهى الى سمعنا عبر السكون حزيناً

كعويل ثكلى وكلما تجاوز العسس بصغيرهم المزعج تزداد الرعدة في جسمى

كنت ارتجف كالمشلول ولم ألحظ مدى القلق الذي سببته لركى بتلك الحال التي كنت فيها

وسمعنا زئير المركب القادم يمزق السكون فالتفت زكى الي مبتسماً وهو يقول .

- لقد جاءوا أسمع ؟ خلصنا .

وفي وسط النهر فتر هدير محركات المركب قليلاً ، وكان زورق خشبي صغير يندفع

في الظلام نحو الشاطئ أمام بيتنا مسرعاً وقبل ان يمضي زكى كرر ما اوصانى به

باقتضاب وذكرنى ان لا أنسى ما يجب ان أقول لمديحة ثم قال وهو يغادر البيت « أشكرك

سنلتقى يوماً ما »

١٠

لم يلبث زكي غير يوم وليلة وها هي الشمس قد أشرقت مرة أخرى وكل شيء
كما كان أمس ومنذ آلاف السنين ! بل وملايينها المياه المنحدرة الى الجنوب والافق
المضيء بعد ابتسامة الفجر وزرقة السماء التي تحمل فوقها الغموض والمجهول المبهم ، كل
شيء كما كان أمس وزكي لم يلبث غير يوم وليلة وها هي الشمس أشرقت مرة أخرى
ولكنني لست الانسان الذي كتبه أمس أبداً ، لكأني خلقت اليوم من جديد كان
شعوري بتفاهتي يتزايد والمستقبل يدق أبواب حياتي كل لحظة وصدى كلمات زكي
يتجاوب في اعماقي « انسان بلا هدف معناه كائن حي فقط يعيش كما يعيش الفأر او
الفيل الغاية الهدف الغاية الهدف من لا يستعمل عقله يعيش ولكن
كالفأر ضعفاً او كالفيل قوة ولكن لم يقل أحد ان الفيل أو الفأر يصنع الحضارة الذي
يقال هو ان اولئك الذين عاشوا غاية سامية وهدف نبيل هم بناء الحضارة اولئك العمال
الذين هندسوا بعقولهم وعملوا بكل قواهم لنقل قيمة الانسان من الوحل الى أعلى فأعلى »

ومضيت الى الكلية لا لشيء الا لخبير مديحة بما اوصاني به زكي ، اليس من
العجب أنني لم أشعر بتفاهتي قبل ذلك اليوم حين التقيت بها ولم يكن يعينني غير أن أراها
لاخبرها فحسب هي التي كنت لا أفكر إلا في ابتسامتها وفي نظراتها وفي الموسيقى اللطيفة
المتترجة بضحكها ، هي التي سهرت الليالي اتساءل حائراً وأقلب على سفير من الظنون

والشكوك والاجوبة البلهاء تغطي بصيرتي اما اليوم فما أسرع ما أخذ الندم يدفن كل ما هو تافه من أيامي في مقبرة النسيان .

كان الهم يشهد عيني الى الارض لفراق زكي وكنت اكلمها وأنا مطرق وصوتي خافت وهي لا تنفك تستزيدني متابعة «بعد؟ .. بعد؟» لقد تضائل الحجل في نفسي كأني شيء تافه كمعنى الايام التي طواها النسيان في مجاهله . وسمعتها فجأة تنبني .
اش ... اسكت....

ورفعت رأسي فظالعتني نظراتها القاسية الى حيث كان أحد الطلبة قادمًا . قلت :

- ماذا ؟

- احذر

وافترقنا في تلك اللحظة مضى كل الى سبيل لكن ما اكثر التقينا بعد ذلك

حتى جاءت الايام التي صرنا نتكلم عن الماضي كما لو كان يعني سوانا

ان أيام الحب قصيرة دائماً ، أما أيام الكفاح من أجل الحرية فهي تاريخ ازلي ،

وهي هي الزمن .

كنت اتكلم عن نفسي ، عن ذلك الشخص الذي كتب لها الرسالة ، ذلك الشخص

المعذب الحائر الخجول وكأنه شخص غيري تماماً . حتى كانت أحياناً تضحك متعجبة من

مقتي الشديد لذلك الشخص ولكنها لم تذكر الرسالة أمامي أبداً حتى كدت أنساها أنا نفسي فلم

أعد اذكر الشخص الذي كتبها . ورغم الصداقة التي توطدت بيني وبين بهجت فقد كانت

تنتابني حالة نفسية كلما رأيتها يسيران معاً بالرغم من الافتاعات التي احتلت رأسي بأنني

يجب ان لا أفكر بالزواج منها لانهما سيتزوجان حتماً .

وفي الايام التي تلت الامتحان كنت أفق شيئاً فشيئاً على الاجوبة التي كنت ابحت

عنها . لم اسافر الى أهلي الا بعد ان اخذت نتيجة الامتحان وكنت الثاني في مستوى النجاح

وفي المدة التي لبستها انتظر تلك النتيجة قبل سفري كنت أقضى اوقاتى مع الاصدقاء الذين
تعرفت عليهم من ابناء المحلة والذين كانت تتجلى في احاديثهم روح وثابة الى الحرية وعزم
أكيد على العمل من أجلها ؛ كنت أدرك ذلك رغم بساطة الاسلوب الذي يتحدثون به
والمواضيع التي يتناقشون فيها وكان بعضهم ساذجاً لكانه صورة لي أيام كنت في بلدتى
لا أدري من حولى غير حاجتى الى الطعام فأجده في البيت والى الملابس فيشترىها لي أبى
والاستمرار فى الدراسة والنجاح ، أما ما عدا ذلك فلم يكن هناك شىء يثير في أي
انفعال كما هو اليوم ، كنت أذهب معهم الى البساتين التي أتلفها الفيضان فنقرأ وتناقش
وفي بعض الأحيان كنت أذهب الى بغداد لشراء الكتب او الى السينما وقد التقيت
بمديحة وبهجت مرة ومرتين في السينما وكنت اعود بافكارى الى الوراء فاذا الحقيقة تتجلى
لي ووجدتني أخلق لها الاعذار أمام عواطفى التي كان لا يزال بعضها كبقايا بركان
خامد وتيقنت أن زواجهما اذا لم يكن حتمياً فهو منطقي فكل الوقائع كانت تؤكد ذلك .
كانت أنا انيتي تتحكم بعواطفى فيما مضى أما بعد أن انكشف لي سخف تفكيرى ، إذ كنت
أمقت بهجت لأنه سيتزوجها فقد أصبحت أتمنى لهما السعادة بل كان شعور ما ، يسيطر
على فأتمنى ان يتزوجها في أقرب وقت . لماذا ؟ الحقيقة أنى كنت ابحت عن نوع العاطفة
التي كانت تدفع السرور الى نفسى ولكنني وجدت أخيراً ان العواطف لا ترحم اذا
انفردت بالانسان : انها لا تلعب به فحسب بل لا تجعل منه غير كاريكتور مجسم لنكتة .
ويوم جاءني بالبريد بطاقة دعوة لحضور حفلة عقد القران فرحت وذهبت ايضاً . . .
وكان بعض الاصدقاء الذين اعرفهم في الكلية هناك . كانت الحفلة خالية من النفاق
الاجتماعى والسخف والغرور . . . لا رياء بالثروة ولا تصنع للابتسامه ولا تكلف
للحديث

وبعد كل تلك الايام التي مضت ها أنذا أكتب عن نفسي وعن مديحة وعن تلك الايام ولكني لم أكتب عن بهجت شيئاً بهجت الذي أحبته تلك الانسانة التي لا أزال أذكرها كأبي كتاب ممتاز ، أي رجل هذا ؟ أيمن أن يصدقني أحد اذا قلت انه كان عددها وأنها لم تكن تعرف ولا أنا أيضاً؟ أيمن ان يكون عدواً لها ذلك الانسان الذي كان يبدو مستعداً لان يخاصم العالم جميعاً لاجلها. ذلك الطالب الذي كان يحب الحياة والناس ويحب الحرية والعدل : ويحبها ويكره اعداءها كما تكره هي الظلم والظغيان والحياة أجل لقد خدعها

أيمن ان يخدعها رجل مثله وهي الذكية التي تعرف جيداً لماذا لا يخرج اخوها من السجن الا ويعاد اليه اخوها الذي اخبرني أنه نهها الى أمور حسبتها في حينها هينة لا أهمية لها حتى ادركت اخيراً مكنم الخطورة فيها ، انا نعيش تجاربنا دائماً .

أجل بعد كل تلك الايام ها أنذا أكتب عني وعن الرجل الذي لم تتوقع أن يمسخ انسانيته بنفسه او ان جذوره العميقة التي كان يستقي منها هدفه في الحياة هي التي مسخته فما عاد يرى الامور الا بمنظار ميكانيكي وقد شل المال حواسه وانتزع الغرور انسانيته ولم يبق منه غير مسخ مقبت يكذب ويعش لكي يحصل على المال الكثير أجل يعيش حتى في عمله وهو صيدلي ولكنه وقد تنكر لكل القيم والمقاييس التي كان يتوج بها وجوده ، يوم تقدم الى قلبها بحبه ، لم يعد يفكر الا بالمال انه يأبى ان يتبرع لمسلول بنصف دينار قاتلاً بهكم « كل يوم مسلول ؟ » بينما يحرص على بدلة (السموكن) وعن طيب خاطر يقدم نصف دينار للمكوي ، وتقول له هي : ولكنه انسان شريف ومريض يا بهجت ، انه مسلول فيجيبها : اسمعي لقد فات ذلك الوقت الذي كنت فيه اساعد كل الناس أنت زوجتي الآن وأنا لا اريد ان تتدخل في هذه المسائل

تزورين أخاك في السجن ؛ تجمعين التبرعات للمسولين وفي كل يوم اجتماع في بيتك
ظاهرة قبول وحقيقته أنا لا أريد

كانت مديحة تشكولي ، وقد سألتها عن جوابها لبهجت عن تدمره ذاك فصمتت
وزفرت زفرة نارية وتأوهت وهي تقول

- ماذا لقد صرخت بوجهه ايها الجبان اللثيم لن أراك بعد اليوم

- وماذا بعد ؟

- تركته للغش وللحفلات وللمال المال الكثير ثم أطلعتني على وثيقة الطلاق

وتابعت « لقد خدعني كنت أظنه مخلصاً في أفكاره ولكنه كما ترى

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

١١

ها أنا أكتب بعد ان التقيت بها وانا في طريقي لزيارة زكي.... وكانت ذاهبة لزيارة أخيها . وسألني بعد ذلك :-

- وانت كيف حالك في هذه الايام ؟

والتفت اليها والام يغلي في عروقي مما سمعته عن بهجت ثم قلت :-

- أنا ؟ في هذه الايام السود أتسأليني ؟

- أقصد شغلك

- وماذا تصورين لا شهادة ولا شغل أنت تدرين انني فصلت من الكلية

- أدري أدري آه

وسألتها بعد دقائق من الصمت :-

- أفكر بكتابة شيء ؛ ماذا تقولين ؟

- ولم لا أكتب ما دمت تستطيع الكتابة

- ولكن ما الفائدة اذا لم أستطع نشر ما أكتب ...

- ولكن بإمكانك ان تكتب شيئاً من الممكن نشره

- هذا صحيح اذا كان عن الحب ؛ وحتى هذا الموضوع لا يكتبون عنه بنية حسنة .

- ولماذا لا تكتب أنت بنية حسنة ؟

- أسمحين لي؟

- أنا؟

- نعم أنت.

وظل القطار يسير ونحن نستعيد ذكرياتنا.... وإيماننا المضيئة.

انتهت

FB-30188
2-32
8174

يا ربي؟

يا ربي؟

يا ربي؟

قسطا العيون ...

هذا الكتاب ...

B

S

... حيا ...

... حيا ...

... حيا ...

... حيا ...

... حيا ...

... حيا ...

... حيا ...

... حيا ...

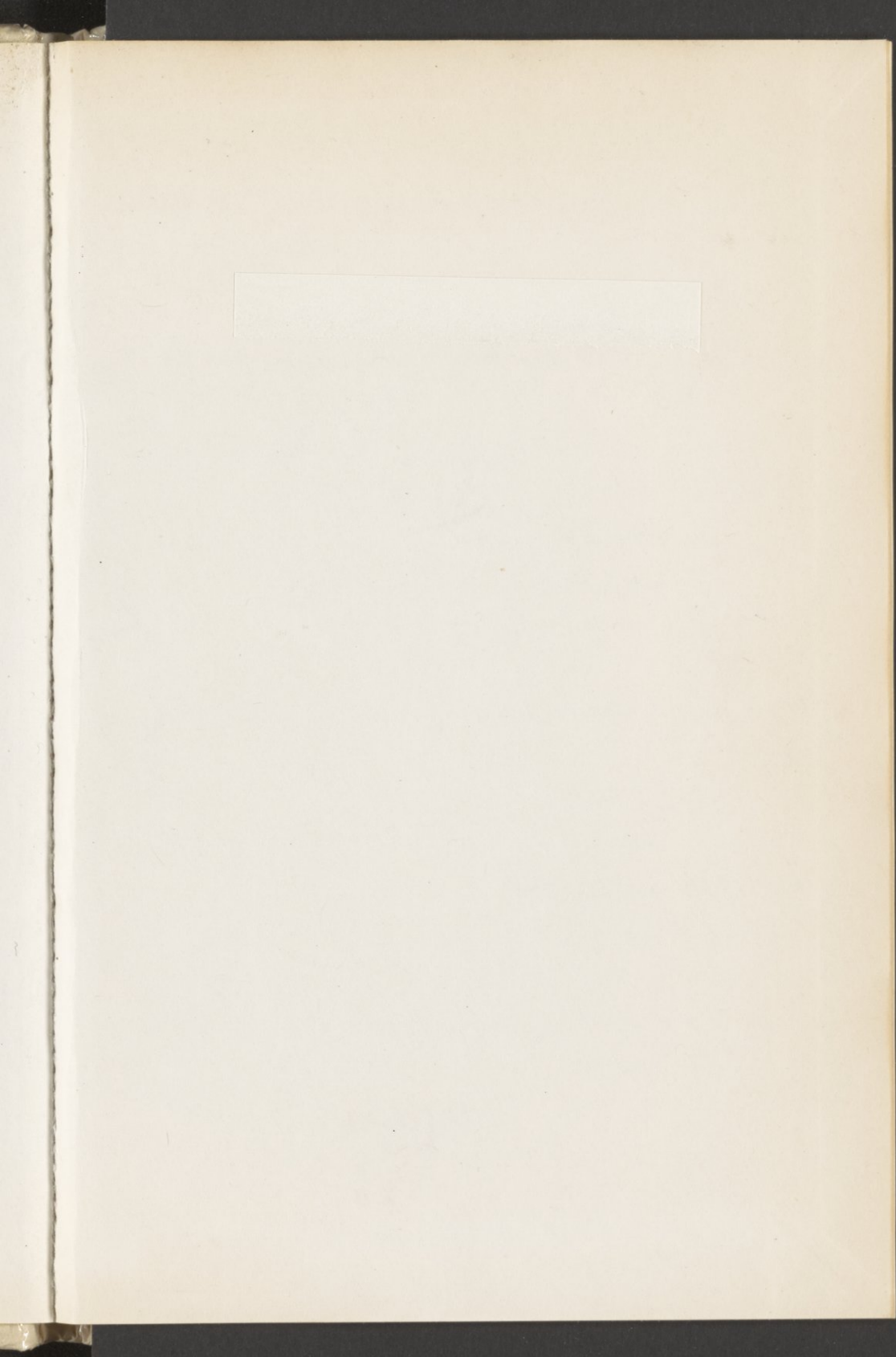
... حيا ...

... حيا ...

PB-33188
5-25
8114

B

S





NYU - BOBST



31142 01517 3100

PJ7840.A2887 A9 1961

al-Ayyam a

31142 01517 3100